من منشورات
مكتبة الامام الحسين العامة
في السماوة

من هدى اهل البيت

- ٢ -

الطريق الى الله

تأليف
العالم الرباني الشيخ حسين البحراني

قدم له
الشيخ مهدي السماوي

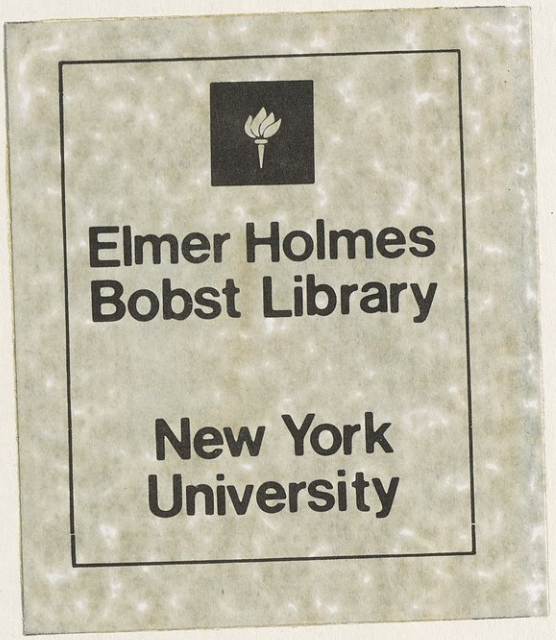
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

al-Bahrānī, Ḥusayn

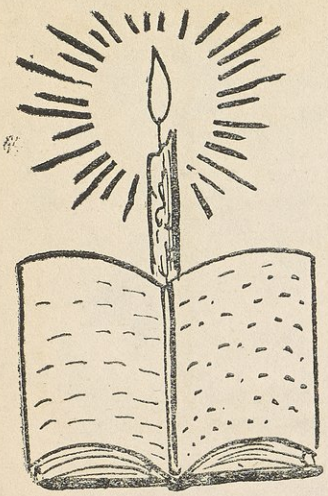

من منشورات
مكتبة الإمام الحسين العامة
في السماوة

من هدى أهل البيت

- ٢ -

al-Ṭarīq ilā Allāh

الطريق إلى الله

تأليف
العالم الرباني الشيخ حسين البحراني

N.Y.U. LIBRARIES

قدم له
الشيخ مهدي السماوي

Near East

BP
183
.6
.B3
C.1

١٣٨٧ هجـ / ١٩٦٧ م

مطبعة الآداب في النجف الأشرف

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ

نَسْتَعِيْنُ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ

صِرَاطَ الَّذِيْنَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّيْنَ

تقديم

بقلم الشيخ مهدي السماوي

بسم الله الرحمن الرحيم

صلة الانسان بربه الذي أحكم خلقه وأكمل تكوينه يزداد إدراكه لها كلما تقدم في كماله النسبي المقدر له، والكمال الانساني هدف مقصود في أصل وجود الانسان، ولا يكمل الأنسان كماله المقدر له إلا اذا سار على الخط الذي رسمه الله له في تشريعه العظيم الحكيم، والذي جهد الانبياء وأوصياؤهم وتابعوهم في عرضه على مجتمعاتهم بالتلويح لهم مرة وبالتصريح أخرى، وفي إبعاد العراقيل التي توضع أمام المسيرة الكبرى لدعوة الله كلما وسعهم المجال، وتبعاً للحكمة في تبيان دعوة الله وحمل الناس عليها.

ودعوة الله على مر السنين ترعى نمو الانسان - وهي تأخذ بنظر الاعتبار ضعفه وحاجته ومقدار تحمله في التزام الاحكام وضبط النفس في تصرفاتها، فيحسب لدلك حسابه الدقيق في دين الحق والفطرة - حينما تأخذ بيده الى التكامل والتسامي والارتفاع.

ونستطيع أن نفهم ذلك من امثال قول الرسول الكريم

صلى الله عليه وآله : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .
وقوله : (جاء موسى بعين ، وجاء عيسى بعين ، وجئت بعينين اثنين » .

فالرسول الكريم صلى الله عليه وآله مبعوث ليتم عملا قائماً عمل لانبياء والصالحون [البناة] قبله بأمر الله في إشادته ورعايته كل قدر إستطاعته وما هُيء له من مجال تباعاً ، حتى جاء دور الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله ليكمل للبناء ، وليعلن للبشرية الصيغة الأخيرة للانسان الأمثل ، ويقدم لها النماذج الحية في ذلك ليعرف كل تكليفه إزاء المرحلة الأخيرة من مراحل نمو الانسان

وما دامت الدعوة موجهة الى الانسان فلابد أن تلاحظ فيه أنه إنسان له جسم وروح وعقل .

فكما يلحظ تدرجه الزمني في تطوره الحضاري ، فللانسانية ككل تدرج وارتقاء كالتدرج الذي يمر به الانسان الفرد حيث يبدأ حياته صغيراً مستعداً للأكتساب ثم يرتقي في ذلك كلما تقدم الزمن به خطوة للأمام .

فكما يلحظ في دعوة الله ذلك لا يمكن أن تغفل مقومات وجوده الأساسية ، فلا يمكنها أن تغفل متطلبات الجسد في الانسان وهي تسمو بروحه الى الارتفاع والصعود ، كما لايمكنها أن تلغي منطق العقل وهي ترعى نزعات النفس وعواطفها وغرائزها فلابد لها من مراعاة ذلك جميعا ، لابد من التهذيب

والتوفيق بين جميع القوى في الانسان ما دامت الدعوة موجهة الى الانسان ، لأن الانسان هو هذا [المركب المجموع] .

ولابد من ملاحظة كونه إجتماعياً بطبعه فلم يكن الانسان كائناً فذاً معلقاً في الهواء ، وإنما هو إنسان يلتقي بالناس وبسائر الكائنات التي معه وفي حدوده فيؤثر عليهم ويتأثر بهم ، ويأخذ منهم ويعطيهم ، وما دام إنسان على الارض فهو بين هـذا الاخذ والعطاء ، الأخذ الذي لم يقتصر على زمانه حسب ، وإنما يمتد أمده من اليوم الاول الذي وجد فيه الانسان .

فلذلك كانت دعوة الله تبارك وتعالى [بنـاء] تعاهده المصلحون منذ اليوم الاول لوجود الانسان فالحكمة إقتضت منذ خلق الانسان نزول النبوة عليه .

أجل إنها بناء يمتد في أبعاده الى الانسان الأول إشترك فيه أبو البشر آدم ، واستمر البناة من نوح وابراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان ، وكل الانبياء قبلهم وبعدهم والأوصياء لهم والخلص من أتباعهم ، فلكل من هؤلاء دوره في الأسهام في هذا البناء الضخم البعيد الزمان ، ويتضح لنا هذا أكثر من قول سيد الرسل صلى الله عليه وآله : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ... فان كلمة [أتمم] لها مدلولها التحديدي في تعريف الغاية التي من أجلها بعث الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله :

فاذا عرفنا ذلك أدركنا بوضوح أن لله سبحانه طريقاً رسمه

للبشرية وخطاً مستقيما أراد لهم أن يسيروا عليه ، ويترسموا خطى دعاته فلا يزيغون عن حدوده وهو طريق واحـد على مدى العصور يضيق أحياناً ويتسع اخرى تبعـاً للحكمة في مصلحة الانسان ، وهو هو في كل زمان ومكان لا يتعرج ولا يلتوي وانما يلتوى المنحرفون عنه ويبعد الزائغون عن سننه القاصد .

وعلى هذا الخـط العريض والطريق الاعظم [الطريق الى الله] الصراط المستقيم سار الانبياء من لدن آدم عليه السلام الى نبينا محمد صلى الله عليه وآله .

ومن هذا العرض الخاطف تتبين بعض الخصائص لدعوة الله تبارك وتعالى فمنها أنّها . -

١ - واحدة على مـدى العصور « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليـه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي اليـه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم للعلم بغيـاً بينهم » (١) .

فهي واحدة من حيث المبدأ والمعاد ، وفي الوسيلة والمقصد والمعتقدات والتعاليم أيضاً ، وتعاليم الانبيـاء وإن إختلفت فيما بينها تبعاً لما تقتضيه حاجة الانسان ، وطبقاً لما تفرضه مصلحته

---

(١) الشورى ١٣/١٤ .

ولكنها تتسم بالطابع الواحد في مناهجها وروحانيتها العالية .

٢ – ومن خصائصها أنها فطرية :

فلا تكون تكاليفها فوق الطاقة ولا تكبت ما جبل عليه الانسان من غرائز ، ولا تغفل من حسابها ما عليه الانسان من حاجات ، بل تقدرها وتزنها وزناً محكماً حين تفرض في تشريعها فروضها المختلفة قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

٣ – ومن خصائصها أنها متسامية :

فهي فطرية تحسب للفطرة حسابها وتزنها وزناً دقيقاً وتقدر للحاجات والغرائز التي جبل الانسان عليها تقديرها المتقن ولكنها لا تسف بالانسان مع غرائزه في دفعتها الحيوانية الهمجية ، ولا تنزل به الى المنحدرات التي لا تليق بكرامة الانسان التي كرمه الله بها وفضله على كثير مما خلق تفضيلا بل ترفعه الى المستوى اللائق به في تشريعها العظيم الحكيم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنها لا تقف عند الحق الفطري الذي تعطيه في تشريعها القويم بل تأخذ بيد المكلفين الى الصعود والتسامي كلما وسع المجال على مراتب متفاوتة فيما بينها محددة للكمال البشري .

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠ .

مثال ذلك ما يعـدده بعض الاخلاقيين من مراتب للورع فهو يوضح لنا الدرجات المتفاوتة الحدود مما يختلف الناس في التحلي بها اختلافاً كبيراً . فهم وإن حددوا الدرجات في أربع ولكن بين الواحدة والأخرى مما عليه الناس مسافات بعيدة المدى ، يقول هؤلاء الاخلاقيون : إن الورع يتفاوت بين الناس في مراحل :

١ – المرحلة الأولى سميت بورع التائبين :

وذلك حين يمنع العبد إيمانه من إرتكاب المحرمات خوفـاً من المولى تبارك وتعالى أن تنطبق عليه صفة الفسق عن دينه . فاذا ترقى فيه ذلك الخوف إتصف .

٢ – بورع الصالحين :

وذلك حين يمتنع عن إقتحام الشبهات خوفاً من إرتطامـه في المحرمات لأن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه فيدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ويترقى عنده هـذا الشعور أو الخوف فيصبح ورعه .

٣ – ورع المتقين :

وذلك حين يبتعد عن بعض المباحات خوفـاً من أن تجره الى المحرمات كمن يتوقف عن أحوال الناس ـ المباح ـ خشية من أن يجره الى الغيبة المحرمـة ، ويترقى هذا الخلق في بعضهم فينتهيه الى :

٤ – ورع السالكين :

إذ يكون حينئذ قد توحدت غاياته في غاية واحدة والتقت أهدافه في هدف واحد هو ذكر الله تعالى والعمل بما يحبه الله تعالى فيتجنب كل خوض في غير ذكر الله ويمتنع عن كل سعي الا ما يحبه الله تبارك وتعالى له فهي وان كانت مباحة لا يخشى أنها تجره الى المحرمات ولكن فلسفته في الحياة المستمدة من إيمانه العميق تزهده في كل أمر لا يؤدي الى الغاية التي من أجلها خلقه المولى وبها إمتن عليه فكل حديث ـ غير ذكر الله ـ لغو فارغ لأنه لا يحقق الهدف الأسمى الذي يسعى لتحقيقه أو لأنه يحجبه عن محبوبه الذي لا يرغب أن يحجبه شيء عنه . وكل حركة في غير ما يحب الله فضول لا يرضاه لنفسه وهو يأخذ نفسه بالجد والحزم في أموره كلها .

وهذا مثل آخر :

الحق الثابت للمعتدى عليه فان له أن يأخذ به ، ولكن التعالي على هذا الحق والتسامح فيه هو الذي تحببه التعاليم الاسلامية وترغب فيه « وأن تعفوا أقرب للتقوى » (١) .

وهنا تتجلى قيمة الأخلاق الرفيعة التي يتحلى بها المؤمن بتعاليم الأسلام والماضي على ضوء من توجيهاتها . فقد بلغت في الدعوة الى التسامح ـ وهو من الخلق العالي ـ أعلى مرتقياته حيث ينتهي الحال في بعضهم الى الدعاء وطلب المغفرة من الله

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

تبارك وتعالى الى الشخص المعتدى كموقف مالك الاشتر - وهو ممن تهذب على يد أمير المؤمنين عليه السلام - من الشخص الذي أساء معه «ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون».

وستقرأ في هذا الكتاب أمثلة حية مستقاة من دعوة الله وحملة أنواره توضح ما ذكرناه نظير الوارد في الباب السابع من الحث على تقديم النفع والمسرات الى الآخرين ومراتب ذلك في بحث عدم انتظار المكافأة واعتبار الاحسان منه نعمة ممنونا بها عليه.

ومن الواضح أن للمثل الأخلاقية العالية التي تعلم الانسان إنسانيته مكانتها البارزة في التعاليم الاسلامية الخيرة، ومن خصائص الدعوة الى الله تعالى.

٤ - إنها ميسرة:

قد يذهب الخيال في بعضهم بعيداً فيخيل له أن هذه الدعوة المتسامية صعبة المرتقى بعيدة المنال، وأنى لأنسان أن يستعلي على ذاته فيكظم غيظه ويخرس الغرائز الصارخه، والحاجات المندفعة، والتي تريد الانطلاق والتعبير عن نفسها... إن الدين مثالي.. ويريد الشياطين بذلك أنه خرافي خيالي أي أن الإنسان يتمتع به في الخيال، ولكنه لا يمكن أن يعيشه الانسان في الواقع الخارجي.

هذا ما ركزت عليه الدعوات المادية، وحاولت جهدها أن تطعن في الديانات الآلهية عن طريقه، وتبعد الناس عن

تفهمه والأخذ به . . . ولكن ذلك معناه الجهل أو التجاهل لتعاليم الاسلام التي تعطي الفطرة الانسانية حقها من التشريع ثم تدعو الى التسامي والارتفاع في حدود يستطيع الإنسان أن ينفذ التعاليم فيها بشوق ولذة مختاراً في ذلك مصراً على تحقيقه .

وفي كل زمان نخبة صالحة من الناس ممن عرفوا ذلك وأنسوا به طواعية ولم يجدوا به أي عنت أو إرهاق ، وانما يجدون به أفضل منطلق للتعبير عن شوقهم ومحبتهم وولائهم للدين الذي به يؤمنون ، والدعوة التي عملوا بأعلى حد من تعاليمها مختارين مخلصين « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (١) « ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى » (٢) .

٥ – ومن خصائصها أنها دعوة واضحة تحدد للانسانية أشواطها البعيدة وتدعوها للانطلاق في مجالاتها الطليقة المحببة ، لأن وظيفة الرسول : التبيين والتوضيح والارشاد ، فلا غمغمة ولا غموض ولا إبهام « قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون وما علينا الا البلاغ المبين » (٣) فالتبليغ والبيان من شأنهم ووظيفتهم ولأن الحجة لله لابد أن تقوم ، ولابد أن تكون بالغة . . .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٢) سورة الاعلى الآية ٨ / ٩ .

(٣) سورة يس الآية ١٥/١٦ .

ومن لوازم ذلك أن تكون جلية واضحة « فلله الحجة البالغة» (١)

٦ – ومن خصائصها : انها قوية مصممة .

فهي دعوة تستمد وجودها وقوتها في الصمود ـ أمام أعدائها الألداء الاشداء ـ من الله تبارك وتعالى الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون .

فالدعاة الذين عمر الايمان قلوبهم فراحوا يدعون الى الله وفي سبيله لا ترهبهم قوة مهما كانت عاتية ولا يبهرهم بهرج مهما كان فاتناً وقد إستمسكوا بالعروة الوثقى ولهم من الصبر أعظم قوة ومن الله أعظم مدد . . . ومن الايات الواردة . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم . الله يعلمهم»(٢).

وقد ضرب الأنبياء قادة الأمم في ذلك أروع الأمثلة في هذا الجهاد العقائدي المقدس كما سار على طريقتهم المخلصون من أتباعهم .

وكمثل على ذلك موقف المثل الأعلى سيد الرسل وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله من أعداء الدعوة العظيمة وقد بذلوا مجهوداتهم المعروفة في المناورات بالقوة تارة وبذل المادة تارة أخرى من أجل أن يتنازل عن دعوته الحبارة فمنوه ـ بعد أن

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ .

(٢) سورة الانفال آية ٦١ .

عجزت القوة أن تثنيه عن عزمه الماضي الأكيد - بكل مايرغب الناس فيه من بهارج الحياة ومباهجها فكان من ردوده عليهم قولته الخالدة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر ما تركته » .

وعلى هـذا مضت الصفوة من المؤمنين ومن لدن آدم عليه السلام حتى يأذن الله لدعوته بالتمكين والظهور الذي وعد به في كتابه المجيد إذ يقول : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١)

ولابد من التصميم والثبات لدوام الدعوة أمام تحدى الأعداء المعاندين وهزء المستهزئين وكيد الماكرين وخبث المنافقين وأمام جميع الأبتلاءات التي يمر بها الداعية . روي عن الامام الصادق عليه السلام « وإن كان النبي من الأنبيـاء ليبتلى بالجوع حتى يموت جوعاً ، وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلي بالعطش حتى يموت عطشاً ، وان كان النبي من الأنبيـاء ليبتلى بالعراء حتى يموت عرياناً ، وان كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالسقم والأمراض حتى تتلفه ، وان كان النبي ليأتي قومـه فيقوم فيهم يأمرهم بطاعة الله . ويدعوهم الى توحيد الله وما معه مبيت ليلة فمـا يتركونه يفرغ من كلامه ولا يستمعون اليه حتى يقتلوه وانمـا

---

(١) سورة التوبة آية ٣٣ .

يبتلي الله تبارك وتعالى عباده على قدر منازلهم عنده (١) ويتحدث عن إسماعيل الذي ذكره الله في الكتاب وإنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً فيقول عنه عليه السلام « سلط عليه قومه فكشطوا وجههوفروة رأسه » (٢) وكذلك سار على سنة الانبياء أتباعهم كموقف أصحاب الأخدود ، وأسرة آل ياسر وغيرهم من المؤمنين الذين عذبوا في الله يريد الجبابرة منهم عبادة الجبت والطاغوت والحجارة ، وهم يأبون إلا التوحيد .

أحد . . . أحد . . .

غير مبالين بما ينزل بهم من أذى أو تعذيب ما داموا على كلمة الايمان وفي الصراط المستقيم ، وما أكثر أمثلة الدعاة في ذلك وهم يرسلون المثل ويذكرون بالعبرة والآية والكتاب والموقف الجرىء في القول الخالد ، والصرخة المدوية . وكل همهم أن يعرف الناس صلتهم بخالقهم فهم دائما في المجتمع كالشمعة تحترق لتضيء الطريق للسالكين ، وفي خلواتهم وملأهم يجتهدون في إبعاد الحجب والستائر بينهم وبين بارئهم اللطيف الخبير فهم يقطعون زهرة أيامهم بالعمل الدائب ، ولياليهم بالسهر الشاق ، وكل همهم رضا سيدهم فلا يبالون جوعاً ولا عطشاً ولا خوفاً من مخلوق أو أذى يقصدون به .

ومن هذا الاستعراض المقتضب تتبين أهمية الاخلاق

---

(١) و (٢) أمالي الشيخ المفيد ص ٣٢ .

وضرورته ومقامه البارز في دعوة الله تبارك وتعالى وهذا مما تمتاز به عن الدعوات الوضعية في فلسفتها وقوانينها الأرضية فهي فى كل حال تركز على ضرورة الأخلاق في تكوين الانسان الفاضل كالشجاعة بما تستلزم من إقدام في الامور ، واستقامة على المبدأ وجرأة على المصارحة ، وصدق في اللقاء .

والتسامي وما يستدعيه من تطهر وترفع وإيثار ، وتأكيد الصلة بالله تبارك وتعالى والتعامل معه تعامل شوق ومحبة ينسيه كل عناء في الطريق .

والصبر وما يستوجبه من مثابرة وثبات وجلد .

والحكمة وما تفرضه من ورع وتحفظ ورزانه ، وتعقل في الأمور كلها والمشاركة الوجدانية وما تتطلبه من تفكير بالفائدة لخلق الله تعالى وإسداء النفع وتقديم المسرات لهم وما يستطيع أن يقوم به من نصحهم ودعوتهم الى دين الله القويم . إذاً يمكننا القول : بأن المظهر البارز في الدعوة الاسلامية والرباط المقدس الذي يشد مختلف فروع الدعوة الاسلامية هو الاخلاق .

فالتشريع الاسلامي سواء أكان في الاقتصاد أم في الاجتماع ومن بينه نظام الأسرة والأحوال الشخصية بعموم ، والسياسة والعبادة وغير ذلك مما يحتاج اليه من التخطيط الذي يكفل سعادة الانسان وكماله وقد تعرضت له الشريعة الاسلامية . . . كل ذلك لا يتم إلا بالطريقة الاخلاقية التي تبناها الاسلام في تشريعه

العظيم الحكيم ، والتي تعاهدها باهتمام في تكوين الامة والفرد وعلاقاته بربه ومجتمعه الخاص والعام .

ولا أظنني بحاجة بعد هذا الى ذكر أهمية الاخلاق ودورها الفعال في حياة الفرد والأمة .

وإنما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولو كان شيء أعظم من الاخلاق لأختص الله بـه نبيه الحبيب سيد الكائنات حين أثنى عليه في كتابه الخالد فقد أظهر قيمة الاخلاق حين امتن على رسوله الكريم بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » (١) .

وقد سلف حديث الرسول صلى الله عليه وآله في أن الغاية من بعثته صلى الله عليه وآله هي بيان مكارم الاخلاق « إنما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ولذلك خصه صلى الله عليه وآله بعنايته العظيمة وكذلك عترته الطاهرين . . . وقد كان من أدعية الامام السجاد عليه السلام دعاء (مكارم الأخلاق) .

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن الأخلاق ليست كما يذهب الدكتور أحمد أمين في كتابه «الأخلاق» واضرابه في أنها التعامل الخارجي الذي يقوم به الناس ، وإنما الاخلاق ملكة راسخة في النفس أو سجايا ذاتية للفرد ينبعث عنها سلوك نظيف فالمجاملة التي ليس لها أساس داخلي مداهنة ، الى الكذب والتصنع

---

(١) سورة القلم آية ٤ .

أقرب منها الى الاخلاق التي هي أساس تكامل الشخصية الانسانية الفاضلة .

ومن هنا تظهر أهمية الحديث عن الأخلاق والدعوة اليه خصوصا في عصرنا الذي طغت فيه المادة والدعوات المادية الفاجرة الماكره ، وضاعت المقاييس الخلقية ، وابتعد الناس عن دينهم ، وجهلوا صلتهم بخالقهم العظيم إلا في حدود ضيقة ، في الوقت الذي لا حياة ولا سعادة ولا خير إلا في إدراك هذه الصلة والعمل بما تستوجبه .

ولذلك إهتم العلماء مدى العصور في تبيان هذه الصلة تبعاً لاهتمام أهل البيت العظيم به فألفوا فيه الكتب وأطالوا الحديث ومنها هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء الاعزاء .

وهو من الكتب الجليلة وقد مضى على تأليفه أكثر من مائة وخمسين عاماً وجدته في مكتبة المرحوم الشيخ عبد الهادي «جدي لأمي» ، وكان رحمه الله شديد الاهتمام به فقد درسه لبعض المؤمنين كما كتبه اكثر من عشرين مرة يقدمه لأعز أصدقائه للاستفادة منه ، وحين عرضت له رحمه الله الرغبة في نشره خف لتقديمه بكل لهفة ولطف حباً للانتفاع به ، كما كان المرحوم الشيخ محمد آل الشيخ عبد الرسول زعيم السماوة الروحي في وقته قد أعده كتاباً تدريسياً فيها ، وقد اكثر من إهتمامه به ولذلك كان لهذا للكتاب أثره الكبير في نفسي ، وكانت الرغبة

في نشره للجماهير المؤمنة ليكون نفعه عاماً تزداد كل يوم جديد :. حتى هيأ الله له أن يظهر ، والأمور مرهونة بأوقاتها .

وإني إذ أقدمه للقراء الاعزاء لعلى ثقة بأنه سيأخذ من نفوسهم مأخذه الكبير ، فالكتاب بلغته البسيطه تطفح عليه نفس مؤلفه رحمه الله سماحة ولطف مدخل .

واعتقد انك بعد قراءته ستتفق معي بأنه لا يقل أهمية عن كتابات معاصره العلامة الشيخ محمد مهدي النراقي قدس سره في (جامع السعادات) الكتاب الأخلاقي الجليل ولعله الوحيد في هذا الباب . وقد نبه المؤلف قدس سره الى دقائق في الاخلاق لا يهتدي اليها إلا العلماء العاملون أو على الأقل لا يستطيع عرضها وأداء الموضوع بالشكل الذي ستقرأه ما لم يكن قد بلغ في الاخلاق مرحلة عالية تؤهله لأن يكون من الخواص في في صحبة أهل البيت عليهم السلام والعمل بارشاداتهم وهديهم ولذلك لا أستطيع أداء حق هذا الرجل الكبير من الثناء عليه وقد كلفت تقديم كتابه القيم القليل النظير في علم الأخلاق .

ولم يسعني وقد طلبت مكتبة الامام الحسين عليه السلام تقديمه أن أحقق مصادر الاحاديث الواردة فيه ، وإن كانت اغلبها من الاحاديث المشهورة والمعتبرة ، وقد حاول المؤلف قدس سره أن يجمع بحوثه التي ستقرأها من مشكاة أنوار أهل البيت عليهم السلام من دون إلتزام بذكر المصادر غالباً ولا تقيد

بالنص الوارد ، وانما يكتفي بنقل المضمون . والحق أنه قدس سره قد جمع فأوعى فقدم رسالة في الاخلاق العالية تحتل الصدارة في هذا الفن بما تضمنته من محتوى جليل وعرض رائع ولغة سهلة ممتنعة .

وإنك ستقرأ بحوثاً في الاخلاق العالية ، ولابد أن تفعل فعلها الاخاذ من نفسك ، فهي وان كتبت بلغة عصر مؤلفها قدس سره ولم يعمد فيها الى التزويق والبهرجة في عبارته ، ولكن إيمان صاحبه الملحوظ وخلقه الرفيع هو الذي يظهر أثره في كل حرف كتبه ، وللايمان قوة نفاذة الى القلوب تفعل فعلها العجيب فيها ، ومن الواضح أن المؤلف لم تكن لتعنيه الناحية الفنيه بمقدار ما اهتم به من الناحية العملية ونفاذ الموعظه الى القلوب ، وقد جاء من ذلك بخير كثير - ولعل الوقت لو كان متسعاً له اكثر لأتانا بجهد أوسع وأوفر ولكن المنية عاجلته كما يبدو من (بابه الحادية عشرة . أن موضوعه بعد لم يتم ولم ينجز الغرض الذي هدف اليه في تأليفه المبارك هذا .

وقد قابلنا هذه النسخة التي اعتمدناها بالنسخة التي عند الشيخ محمد رحمه الله وغيرها من النسخ التي خطها المرحوم الشيخ عبد الهادي فكان لهذه المقابلة أثرها المحمود في تحصيل النص الذي هو أقرب الى ذوق المؤلف وتصحيح بعض الأخطاء كما ينبغي أن نذكر باننا تصرفنا بوضع بعض العناوين لمواضيع الكتاب.

ولعل من الجدير بالذكر ومن الأمانة أن نذكر أن المرحوم الشيخ عبد الهادي قد أضاف الى هذا الكتاب الجليل مجموعة من الأدعية والأوراد وبعض الإستشهادات الشعرية وبعض الأحاديث حيث ظهر له أن غرض المؤلف كان يتجه الى الناحية التطبيقة وقد سال الله تعالى أن يهييء له من يكملة فاراد أن يحقق الله به ذلك .

ولما كانت الحاجة اليوم ماسة الى البحوث الأخلاقة التي ذكرها المؤلف قدس سره ، والزيادة في البحوث تستوجب تكليفاً اكثر يبهض المكتبة الناشئة في عملها الجديد على ان ذلك موضوع آخر نسال الله تعالى أن تسنح له فرصة أخرى فينشر مستقلا وإن كان له كل الإرتباط بمواضع الكتاب باعتباره تطبيقاً عملياً له .

وهذا الكتاب للذي بين أيدينا (الطريق الى الله) سماه مؤلفه (رسالة في الأخلاق) وقد فضلنا تسميته باسمه الفعلي لأن صاحبه من السالكين الى الله تعالى وقد ذكر فيه ما ينبغي ان يكون عليه المؤمن من الخلق العالي حتى يقربه من الله تبارك وتعالى درجات وما معنى أن الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق ولأنه يعرف الناس بصلتهم ببارئهم ، وكيف يسلكون السبل اليه كان الانسب أن يسمى بـ (الطريق الى الله) وهو بعد من خيره الكتب الاخلاقية وسوف لاتجدنى مبالغاً إذا قلت بأن فيه

كنوزاً من العرفان مستقاة من تعاليم أهل البيت عليهم السلام الذين آتاهم الله لباب الفضل وخالص الحكمة وفصل الخطاب

ومؤلفه رحمه الله يتمتع بمكانة علمية جليلة فهو من العلماء الاعلام مع إطلاع واسع وعرفان متقن وغزارة في المعرفة بالبحوث الاخلاقية التي أثرت عن أهل البيت عليهم السلام كما يظهر ذلك من رسالته الجليله هذه وكما أطراه جماعة من المحققين الأثبات كالبحاثة المحقق الكبير الشيخ أغا بزرك الطهراني فقد ذكر في كتابه (أعلام الشيعة) ص ٤٠٣ ج ٢ بأن «الشيخ علي بن الشيخ حسين بن الشيخ صادق البحراني : من العلماء الاعلام ، رأيت في [مكتبة الشيخ مشكور الحولاوى المذكور آنفاً] شرح القواعد للمحقق الكركي كتب المترجم له بخطه على ظهر النسخه أنه نظر فيه ، وتفكر في معانيه ، وذكر نسبه كما أسلفناه وتأريخ خطه (١٢٢٧) .

ومعلوم أن وفاته بعد ذلك » .

وتحدث عن كتابه هذا في الذريعة بعنوان اخلاق بحراني ص ٣٧٢ ج ١ فقال : « رأيته في مكتبة سيدنا العلامة الحسن صدر الدين الكاظمي وكان يستحسنه كثيراً ويقول : « ما رأيت كلاماً احسن من كلامه في باب الأخلاق اللهم إلا بيانات جمال السالكين السيد رضي الدين علي بن طاووس .

وذكر في التكملة ان مؤلفه من متأخرى المتأخرين من

فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال » .

وكذلك ذكره السيد محسن الأمين قدس سره في أعيان الشيعة ج ٢٧ ص ٤٠ بقوله : « الشيخ حسين بن علي بن صادق البحراني عالم فاضل أخلاقي من متأخري المتأخرين من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال والعرفان رأينا له رسالة في الاخلاق ـ يشير الى كتابه هذا ـ أولها : وبعد فيقول العبد الجاني والاسير الفاني حسين بن علي بن صادق البحراني : اني مستعين بربي ومتوكل عليه ومتوجه اليه بأحب خلقه اليه في جمع نبذ من نصائح أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم (١) وإرشادهم لمواليهم . . . الخ » وصاحب الذريعة سماها أخلاق بحراني ، ووجدت في مسودة الكتاب انه ذكر في آخرها أن المفيد يروي عن صاحب تحف العقول .

وانها رسالة حسنة ولم يبق ببالي الآن مشخصاتها ، وقال بعض من رآها انها من أحسن ما كتب في هذا الفن ، وبعض قال انها رسالة في السلوك على طريقة أهل البيت » .

وهذا الكلام الذي ذكره الحجة السيد الأمين عن الرسالة يدل على قيمتها عند العلماء كما يدل على شهرتها وتداولها في ذلك العهد الذي الف فيه أعيان الشيعة كما يظهر ذلك من كتاب

(١) هكذا الموجود ، والصحيح كما (في) النسخة التي اعتمدناها (لشيعتهم) .

الذريعة مضافاً الى التنويه بمقامه العلمي الجليـــل فهو من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال والعرفـان ويكفي في تقييم ذلك ما يقول السيد الصدر في شأن رسالته الاخلاقية هذه :

« ما رأيت كلاماً أحسن من كلامه في باب الأخلاق...الخ»

ولهذا أرى ان من الحق أن أنوه بأن المكتبة قد قامت بخدمة جليلة وجهد مشكورة عليه أخذ الله بيد العاملين فيها من أجله لما يحب ويرضى وجعل غايتهم وجهه وسدد خطاهم وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير .

١٣٨٧ / ٦ / ٢٧ مهدي السماوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وصلى الله على خيرته المنتخبين وصفوته المنتجبين ومظهر لطفه في العالمين محمد وآله الطاهرين وبعد فيقول الجاني والأسير الفاني حسين بن علي بن صادق البحراني اني مستعين بربي ومتوكل عليه ومتوجه اليه بأحب الخلق اليه في جمع نبذ من نصائح أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم وارشادهم لمواليهم التي بها حياة قلوبهم واستنارة عقولهم المظلمة من مخالطة الأهوية والشهوات المكدرة من خطرات المعاصي والسيئات وأرجو من الله الأمداد والأسعاد ، وان يجعله ذخراً لي ليوم المعاد إنه الكريم الجواد وعليه التوكل والاعتماد وهو حسبي ونعم الوكيل :

ولنقدم لذلك مقدمة يظهر منها ما هو الغرض من إثبات هذه الكلمات والتنبيه على هذه النكتات ، وذلك إني كثيراً ما كنت أمني نفسي الميالة للباطل بجمع ما استفدت من آثار أهل البيت عليهم السلام في الأيقاظ لهذه القلوب الغافلة والاحياء لهذه النفوس الميتة بادبارها عن الله واعراضها عنه فيمنعني عن ذلك عدم نشاطي للعمل وملازمتي للكسل فيكون ذلك وبالا علي فان

العلم اذا لم يعمل به لا يزيد صاحبه الا بعداً من الله ولا يرجى به التأثير في القلوب لما اشتمل عليه اخبار أهل البيت عليهم السلام من أن العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته من القلوب .

لما رأيت تقضى العمر ومشارفة الأجل ورأيت ان التسويفات لا تجدي والتعللات لا تفيد وقادني ذلك التماس بعض الاحبة وارادة جملة من الخلان استخرت الله سبحانه وقصدت ان يكون ذلك تذكرة لنفسي عسى ان تتنبه عن غفلتها ورجوت فيه اليمن والبركة بسبب كونه إجابة الاخوان في الله وتقربت الى الله سبحانه في خدمة اخبار اهل البيت عليهم السلام ورجوت منه ان يشرفني بذلك فعزمت بحول الله وقوته على جمع مضامين من اخبار أهل البيت عليهم السلام في ابواب متفرقه وأصول متعددة من غير ذكر الأسانيد ولا تحر لنقل خصوص الألفاظ فان مضامينها بعد التنبيه عليها والتنبه لها مما تصدقها العقول السليمة وتشهد بها الفطرة المستقيمة فان المقصود مجرد الاشارة والاستعانة بالله ومنه التوفيق للعمل وعليه المتكل .

الباب الاول

في الحاجة الى تهذيب الأخلاق

وبيان ثمرته

وشدة الأعتناء بشأنه

إعلم أيدك الله ان النبي صلى الله عليه وآله قال بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، ولا التباس في ذلك فان أمر المعاد والمعاش لا ينتظم ولا يتهنى طالبه إلا بالخلق الكريم فلا تتوهم أن العمل الصالح الكثير ينفع من دون تهذيب الخلق وتقويمه بل يجيء الخلق السيء فيفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل فأي نفع فيما عاقبته الفساد ، ولا تتوهم أن العلم الكثير ينفع من دون إصلاح الخلق وتهذيبه حاشا وكلا فان أهل البيت عليهم السلام قالوا لا تكونوا علماء جبارين فيذهب بحقكم باطلكم ، ولا تتوهم أن صاحب الخلق السيء يقدر أن يتهنأ بمعاشرة والد أو ولد أو زوج أو صديق أو رفيق أو دار أو أستاذ أو تلميذ ، كلا بل كلهم يتأذون منه وينفرون عنه ، وكيف يمكنه اكتساب الكمالات المتفرقة في الناس وأهل الكمال ينفرون منه ويهربون عنه .

واعلم أن من نظر الى طريقة أهل البيت عليهم السلام ويتتبع في أثارهم وجد هدايتهم للخلق وجلبهم للدين إنما هو بأخلاقهم الكريمة وبذلك امروا شيعتهم فقالوا كونوا دعاة للناس بغير السنتكم ، بل يعنون بأخلاقكم الكريمة وأفعالكم الجميلة حتى تكونوا قدوة لمن اقتدى ، وأسوة لمن تاسى فاذا ظهر أن أمر المعاش والمعاد إنما يتمان بمكارم الأخلاق وان إتمام مكارم الاخلاق هو فائدة البعثة التي ما صلح الوجود الا بها تبين أن تهذيب الأخلاق مقدم على كل واجب وأهم من كل لازم ، ومع ذلك هو

مفتاح كل خير والمنبع لكل حسن والجالب لكل ثمرة والمبدأ لكل غاية .

انظر فيما ورد من أن الكفار يثابون على مكارم الاخلاق وفرط الذي كان دأبه مخالفة النفس فجره ذلك الى الايمان ، وفي الذي كان سخياً وكان من الأسرى عند النبي صلى الله عليه وآله فنزل جبرئيل عليه السلام من الله عز وجل بأن لاتقتلوه لسخائه فجره ذلك الى السلامة من القتل في العاجل والفوز بالجنة آجلا .

فاذا عرفت هذه المقدمة التي يظهر لكل من اختارها وجربها صحتها وصدقها فاعلم وفقك الله وأرشدك أن لأهل البيت عليهم السلام أصولاً في الأخلاق وقواعد وضوابط تعين ملاحظتها على كسب الاخلاق بسهولة ويسر لا بتكلف وعسر كما يدور عليه كلام علماء الاخلاق .

فان النبي صلى الله عليه وآله أتانا في علم الشريعة بالشريعة السمحة السهلة موافقاً لما أخبرنا به ربه عز وجل من انه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر وانه ما جعل علينا في الدين من حرج ، كذلك في علم الطريقة فتح لنا أبواب اليسير وسد عنا ابواب العسير فلا يثبطنك الشيطان عن أخذ نصيبك من علم الأخلاق بأن ذلك أمر صعب يتوقف على مجاهدة النفس ، ورياضات بالغة ! وأين أنت عن ذلك فانّا رأينا أهل المجاهدات

الشاقة والرياضات البالغة ما أوصلتهم إلا لمقاصد دنيويه ومقامات ردية من غير رسوخ لهم بطريقة أهل البيت عليهم السلام ولا تشبه لهم في أطوارهم وأصل هذا المعنى وبيانه : أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى بلطف حكمته وجميل صنعته بهر العقول وأمتحن أهلها بأن طلب من الخلق أموراً كلية عظيمة ، وجعل مفاتيحها أموراً جزئية حقيرة ، فمن استعظم الأمور الموصلة اليها وتهاون عنها فاته ما أريد منه ، وكان ذلك من اعظم الأمتحان له ، ومن توسل بتلك الأمور الجزئية او صلته الى تلك المطالب النفيسة الكلية ، فهو لم يأت إلا الجزئي الحقير مع أنه اوصله الى الكلي النفيس الكثير وذلك من اعظم السعادات له .

فتدبر هذه الحكمة البالغة وامعن النظر يظهر لك كيف اقام الحجة البالغة على هذا الخلق ، واكمل لهم النعمة السابغه ، فيالها من نعمة : كيف اوصلهم بهذه الجزئيات الى هذه المراتب الساميه . ويالها من حجة : كيف عرضوا أنفسهم للهلكة الدائمه ، والعقاب الاليم ، وكان يخلصهم منها الاتيان بجزئيات حقيرة . فمن تأمل هذه الحكمة واقتبسها من آثار أهل البيت عليهم السلام ظهر له معنى قوله إن من إستقل قليل الرزق حرم كثيره وان مبدأ كل الشرور والمهلكات هو استقلال القليل واستحقار الحقير كما أن مبدأ الخير نابع من مفهوم هذا الحديث وان من لم يستقل قليل الرزق لم يحرم كثيره وبعد

تتبعك هذا المعنى تجد شواهده في الحل المحكم ، والأخبار لاتحصى ولا تعد ، منها قولهم اتقوا محقرات الذنوب وقولهم لا تستحقروا طاعة فربما كان رضا الله تعالى فيها ولا تستحقروا معصية فربما كان سخط الله فيها ، الى غير ذلك من أخبارهم عليهم السلام فاتضح للمستبصر المسترشد أن طريقة الشرع الشريف المحمدية إنما هي مبنية على أمور جزئية سهلة يسيرة باذن الله موصلة الى أسنى المطالب وأهنى الرغائب .

ويزيد هذا المعنى وضوحاً التأمل في الحديث القدسي حيث يقول رب العزة سبحانه « إن من تقرب إلي شبراً أتقرب اليه ذراعاً : فاذا كان هو سبحانه يدنو إلى من دنا منه ويدعو الى نفسه من أدبر عنه ، فكيف بمن أقبل اليه ، وقرع بابه وكفاك قول سيد العابدين في دعاء السحر : وان الراحل اليك قريب المسافة وانك لا تحتجب عن خلقك الا أن تحجبهم الآمال دونك أو تحجبهم الأعمال السيئة في بعض النسخ .

فيا أيها الأخ الطالب للأقبال على الله ، والمتمني لهذه المرتبة السنية ، استمع مني مقالة ناصح لك مقتبسة من مشكاة أهل البيت عليهم السلام لا سواهم ، لأن من شذ عنهم شذ الى النار وهي انك بعد أن ما علمت أن المطلوب من العبد التخلق بالأخلاق الكريمة التي بشرفها نسبة الى الرب رب العزة فقد ورد عنهم تخلقوا بأخلاق الله وهي أخلاق محمد صلى الله عليه وآله

وآل بيته الطيبين الطاهرين وشيعتهم واعلم أن قوام ذلك المعنى ونظامه إنما هو الجلوس على بساط الاستقامة ومجانبه الافراط والتفريط فتقرب الى الله تعالى بما تيسر لك من الطاعات واجتناب ما يكرهه من السيئات ، واجعل بناء أمرك على عدم المسامحة والمماهلة في جزئي ولا كلي وكلما تعلمه راجحاً من الأمور المعلومة بالرجحان إجعل همك في فعله ولو كان جزئياً حقيراً في نظرك ، وكلما تعلمه بعدم الرجحان من الأمور فاجعل همك في تركه واجتنابه وان كان جزئياً حقيراً في نظرك ، ولا تجعل بناء أمرك على التسامح والتساهل لا في جزئي ولا كلي ، بل ليكن أمرك مبنياً على الضبط والاتقان ، وإياك أن تتعلق بالاكثار من الأعمال من دون ملاحظة الضبط والاتقان فان أمراً واحداً تتقنه وتضبطه وتوقعه على وجهه على وفق الوضع المراد ينتج نتيجه الألوف من الأعمال الحسنه لا على وجه الضبط والاتقان بل الألاف الكثيرة من الأعمال الحسنة لا تنتج نتيجة واحدة من الأعمال المتقنة المضبوطة ، بل لا نسبة بينها عند أهل المعرفة والحكمة . . .

لا أقول لك لا يقع منك الأخلال بجزئي ولا بكلي حتى تستعظم هذا المعنى وتقول أنى لي به ، وأنا أنا . بل أقول لك لا تجعل بناء أمرك على الاخلال بجزئي مسامحة ومساهله . فأما إذا وقع منك الاخلال بأمر لغلبة الهوى ومخادعة النفس والشيطان

وذلك أمر آخر وذلك من شأن غير المعصوم ، فمقصودنا توطين النفس على عدم المسامحة والمساهلة فهـذه الجزئيات من الشرع على المواظبة عليها وترك التسامح والتساهل فيها تفيـد الترقي والوصول الى المقامات الرفيعة العالية فان الله سبحانه قد جعلها باذنه مفاتيح تلك الخزائن ومن قبض مفاتيح الخزائن بيده استغنى وفاز فوزاً عظيما . ولولا خشية الاطنـاب لأوضحت إيضاحاً شافياً وأكثرت الشواهد عليه وهو حقيق بذلك فإنه أتقن وأضبط باب يفتح منه ألف باب من الحكمة الألهيـة وعسى أن نزيده بياناً في الأبواب الآتية إن شاء الله .

الباب الثاني

في رجحان الخوض في علم الأخلاق

وصرف برهة من العمر فيه

إعلم أنــه إشتبه الأمر على جمــلة من الصلحاء الأبرار والأخوان الصافين من الأكدار من أهل المجاهدة للنفس الأمارة بالسوء فإنهم لما رآهم الشيطان (لع) في مقام المجاهدة للنفس الذي هو أفضل الجهاد حتى سماه النبي صلى الله عليــه وآله (الجهاد الأكبر) أراد أن يخدعهم عن ذلك فألقى في روعهم شبهة عظيمة من شبهه هي : أن ملاحظة المواعــظ والنصائح والتذاكر بها وتطلب العثور عليها والتدبر لها ما هو قوام علم الاخلاق أمر لا راجحية فيه ، فإن مع ما نرى من أنفسنا من العمل بخلاف ما نعلم يكون وبالا وزيادة في إقامة الحجة على العبد ، فيكون التغافل والتناسي مع هذا الحال أحق وأحرى ، فأن ذنب العالِم كالعالَم ، وانه كلما قل علم الأنسان واطلاعه على التحذيرات وأنواع التهديدات يكون أقل إمتراء ، وأقرب الى المعذورية ، وانه ليس من لا يعلم كمن يعلم .

وإني سمعت منهم هذا المعنى وعلمت أنه من خدع الشيطان الرجيم (لع) نبهتهم على رواية رواها الشيخ الحر في الجواهر السنيه في الأحاديث القدسية ، وفيها قمع هذه الشبهة من أصلها وإبطالها من رأس ، ومعنى الرواية : أن الله سبحانــه يقول : لا تقولوا نخاف أن نعــلم ولا نعمل ، قولوا نعلم ونرجو أن نعمل ، فاني ما أتيتكم إلا وأنا أريد أن أرحمكم بها .

وهذا الخطاب الالهي أقمع هذه الشبهة ، ولولا مخادعــة

الشيطان لما كان محلا للأشتباه وحتى يحتاج الى الأزالة ، ولكن كفى بهذا البيان الأهي قامعاً .

ونزيدك بياناً تعرف به جلية المسألة في العلم والعمل وثمرة كل منهما ويتجلى لك ما وضع لأجله الباب من رجحان هذا العلم وثمراته فنقول : إنه من المعلوم : أنه لا نفع للعلم بدون العمل ، كما لا نفع للعمل بدون علم ، ولكن العبد مأمور بكل منهما وكل واحد منهما يؤكد صاحبه ويقويه فمن إتخذ العلم لا للعمل بل ليفتخر به ، ويستر بمحاسن العلم ، وشيوع الجمال وبهائه بين الناس قبح أفعاله وخصاله القبيحة ، فلاشك أن هذا قرين إبليس اللعين ، وعلمه وبال عليه ، وعلى غيره ، وان أهل النار يتأذون به ، وهو من الذين يحملون أثقالهم ، وأثقالا مع أثقالهم ، وهو شيطان في صورة إنسان - نعوذ بالله منه - وكذا من إتخذ العلم عادة إعتادت عليها نفسه ورياء وسمعة بهذه الصورة الممدوحة بين الناس من دون بصيرة ولا معرفة فهذا حمار مربوط ملحق بالأول وان كان أقل منه ضرراً على العباد ، وأما من كان عاقلا فهماً وطلب مابه صلاح نفسه وسعادته في داريه ، وهو المتوجه الى الله الطالب ما عند الله وهو المقصود بخطابات هذا الفن لتربيته وترقيه فيما هو طالب له فليعلم : أنه كلما إنفتح له باب من العلم سهل له العمل به وزاده نشاطاً ورغبة فيه ، وكلما عمل بما علمه الله من العلم أورثه ذلك علم ما لم يعلم ، وزاد في علمه

كما في أخبار أهل البيت عليهم السلام حيث قالوا إنه من عمل بما علم أورثه علم ما لم يعلم فيكون في الحقيقة عمله نوعاً من العلم حيث أنه مورث له ومحصل له فيدخل تحت طلب العلم التي تواترت الروايات بفضله ومدحه ، كما أن علمه وتعلمه وتعليمه من أفضل أفراد العلم ، فعند ذلك تتم للعبد السعادة بالعلم الباعث على العمل والعمل المنبعث عن العلم ، والسعادة وان تمت بالمجموع المركب من العلم والعمل الا أن أفضل الجزءين عند الله إنما هو العلم وبه يقع التفاضل بين الأولياء قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام « مسحة من المعرفة خير من كثير من العمل ، وما هما الا كالنية والعمل والفضل للنية وكالروح والجسد والفضل للروح » .

وفيما ذكرناه كفاية لمن طلب الهداية والله ولي التوفيق .

الباب الثالث

في بيان ان الله خلقنا للسعادة الدائمة

أعدها لنا وأعدنا لها

إعلم ان الانسان خلق للحياة الدائمة والعيش السرمدى وعمر الآخرة لا نهاية له وقد جعل الله هذه الدنيا مزرعة للآخره ورتّب الجزاء في الآخرة على الأعمال في هذه الدنيا فكان تأهل العبادة لتلك السعاد الابدية بهذه الأعمال الدنيوية ولا ريب ان هذه الاعمار القصيرة والمدة القليلة لو استغرقت بالعبادة بحيث لم يعص الله فيها طرفة عين ، ولم يصرف مقدار نفس من الانفاس الا في طاعة الله فهي مع ذلك قاصرة وناقصة بالبداهة والضرورة عن الأهلية للمقابلة ومقام المعاوضة والمجازاة فلابد بمقتضى الرأفه الألهيه والرحمة الربانية ان يفتح لهم أبواباً من ابواب كرمه يؤهلهم بها لمقام الجزاء بمالا انقضاء له ولا فناء ، إذ كل نعمه ابتداء ، وكل احسانه تفضل ، فاول ما تفضل به عليهم بجوده وكرمه أن جعل أعمالهم غير منقطعة بانقطاع أجالهم ولا منتهية بانتهاء مددهم بحثث جعلها يمكن أن تكون منطبقة على عمر الدنيا ومستغرقة لأيام العمل ووجود العاملين وذلك بأن جعل من أحكام دينه التي حكم بها أن من سن سنة هدى فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة كما أن من سن سنة ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة وكذلك جعل من احكامه أن الوالدين شركاء مع أولادهما فيما يعملون من أعمال الخير بمقتضي التسبب والعلية للوجود ، وهذه سلسلة غير منقطعة .

وكذلك جعل ثواب بعض الاعمال أن يخلق منها ملائكة يعبدون الله الى يوم القيامة ويكون ثواب عبادتهم لصاحب العمل.

وكذلك فتح لهم باب التنزيل فنزل العمل ليلة واحدة بمنزلة العمل في ألف شهر، بل أخبر الله سبحانه فقال ليلة القدر خير من ألف شهر.

وجعل تفكر ساعة بمنزلة عبادة ستين سنة على ما في بعض الروايات، وجعل مبيت ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام تعدل عبادة سبع مائة سنة.

وجعل قضاء حاجة المؤمن تسعة آلاف سنة صائماً نهارها قائماً ليلها وجعل صيام ثلاثة أيام من كل شهر قائمة مقام صيام الدهر:

كل ذلك تعطفاً منه على عباده المؤمنين وتفضلا ليؤهلهم لأن يوصلوا إلى رتبة استغراق عمر الدنيا بالطاعة حتى يكون لهم شوق التأهل بهذه المرتبة النفيسة بجوده وكرمه، ثم ذلك قليل في جنب ما يريد أن يؤهلهم عن استغراق مدة الأمد والسرمد بالعبادة والطاعة له عزّ وجل فأكمل لهم الامتنان ليتم لهم الأنعام بأن فتح لهم باب الجزاء على النية التي هي خير من العمل فجعل نيات المؤمنين أن لو خلدوا في الدنيا لداموا على طاعتهم لله عز وجل فأثابهم على ذلك ثواب الدائمين على طاعته وجعل جزاءهم على هذه النيات الخلود في الجنة. كما أن للكفار

بسوء نياتهم وأنهم لو داموا لداموا على معصيته جعل جزاءهم الخلود في عقابه .

فياأيها الأخ المسترشد إعلم أن أعمالك مبنيه على الدوام لا على الأنقطاع ، وان كنت تراها منقطعة ففي بعض الأخبار أن السعيد من ماتت سيئاته بموته يعني من سعادته أن لا يعمل بها بعده وإلا فإذا عمل بها اقتداء به واقتداء بمن اقتدى به كان عليه وزرها الى يوم القيامة ، فالمعصية والعياذ بالله مقتضاها التسلسل . . . إلا أن يتعطف الله بمحوها وازهاقها فاحذر كل الحذر من المعاصي فقد تؤثر في الأعقاب وفي اعقاب الأعقاب ، وارغب في الطاعات فإن ما كان لله ينمو ومن نموه أن يؤثر بعده الى آخر الدهر وفي الأعقاب وأعقاب الأعقاب إلى يوم القيامة فتيقظ ولا تكن من الغافلين .

الباب الرابع

في ذكر بعض الطرق الى الله تعالى

إعلم أن الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق ، فلكل أحد من الخلق طرق إلى الله بعدد أنفاس كل الخلائق ، والشقي من ضاقت عليه رحمة الله التي وسعت كل شيء .

واعلم أنه لا طريق أنجح من حسن الظن بالله فإنه في ظن عبده المؤمن إن خيراً فخير وإن شراً فشر . . .

وللناس قد عودوا أنفسهم بمقتضى تسويل النفس والشيطان على سوء الظن بربهم ومسارعة أذهانهم الى التفـاؤل بالسوء واليأس من الفرج بمجرد مشاهدة آثار الأبتـلاء والتخوف من شدة البلاء ، متيقنين في ذلك ، ويوقعون فيما فروا منـه ويجري عليهم ما تفاءلوا به من البلاء فيقعون فيما فروا منه ويجري عليهم فانه والعياذ بالله نوع من سوء الظن ، وقد عرفت أنـه بسوء الظن يتأهل العبد لأن يعامل العبد بسوء ظنه ، إلا أن يعفو الله سبحانه .

والنبي صلى الله عليه وآله كان يحب التفاؤل بالخير ، ويكره الطيرة .

والطيرة على حسب ما يراها صاحبها إن رآها شديدة كانت شديده ، وإن رآها خفيفه كانت خفيفه ، وإن لم يرها شيئاً لم تك شيئاً ، كذا في خبر في روضة الكافي ، فيجب على المؤمن المقتفي بآثار أهل البيت أن يعود نفسه على حسن ظنه بربه فيرجو من الله بالقليل الكثير فهو سبحانه الذي يعطي الكثير بالقليل وكلما

تؤمله منه وتظنه به سبحانه وتعالى من أصناف الخير وكرمه فوق ذلك ، وظنك له نهايه ، وكرمه سبحانه لانهايةله ، وهو سبحانه قد أخبرك بانه في ظنك الحسن وعند ظنك الحسن وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام (من ظن بك خيراً فصدق ظنه) .

فاذا كان حكمه على عباده الجاري على لسان أوليائه أن يصدقوا ظن من ظن بهم خيراً ويحققوا ظنه وهو سبحانه عز وجل أولى بذلك .

بل يستفاد من الاخبار وتتبع الاثار : أن كل من يحسن الظن بشيء يصدق الله ظنه ، ويجري له الامر على وفق ظنه الحسن ، وكأنه من أفراد حسن الظن بالله اذ معنى ظن الخير بهذا الشخص يرجع الى الظن بأن الله أودع فيه ذلك الخير للمقدمة المطوية المعلومه من أن كل خير من الله فالله سبحانه يصدق هذا الظن .

وقد جاء صريح بأن من ظن بحجر خيراً جعل الله فيه سراً فقال له الراوي : بحجر ! فقال له الامام عليه السلام : أو ما ترى الحجر الاسود .

فيستفاد من هذا أن الله سبحانه وتعالى يصدق الظنون الحسنة من المؤمنين من بعضهم في بعض ويحقق لهم ذلك .

ومن ذلك تصديق شهادة من يشهدون للميت بأنهم لا يعلمون

منه الا خيراً للتنبيه على حسن الظن بل على عدم العلم بغير الحسن وقد ورد الحديث بأن الله يجيز شهادتهم ويغفر لهم وله ما يعلم لما لا يعلمون ، فمقتضى حسن الظن أن يجريه الله للظان ولمن ظن به الخير إلا أن يمنع مانع قوي من جريانه في من ظن به فيجريه الله للظان كما في بعض الاخبار . أن الرجل قد يكرم رجلا على أنه من أهل الخير فيدخله الله بذلك الجنة ، وان كان في علم الله أن ذلك المكرم من أهل النار فهذا مما منع فيه المانع القوي من إجراء الظن في من ظن به فاجري للظان .

والحاصل إن من إمتثل ماأمر به من حسن الظن لأخوانه المؤمنين لا يخيب إذ هو إما أن يصدق ظنه ويقلب الامر على وفق ظنه برحمة الله أو يجري له ظنه في حقه ولا يضره تخلف ذلك في المظنون به الخير .

وهذا باب عظيم في حسن الظن بالمؤمنين ولعله على هذا إبتنى الامر في قبول صلاة الجماعه فان المأمومين أحسنوا الظن بالامام وجعلوه واسطة بينهم وبين الله في قبول صلواته فاعطاهم الله ذلك فقبل صلاة الجميع بحسن الظن به الى غير ذلك من موارد حسن الظن : كالذي يشرب من سؤر المؤمن تبركاً به وكماء زمزم فانه لما شرب له قال الشهيدان وقد شربه جملة من الأكابر لمقاصد دينيه ودنيويه فنالوها فلا تغفل عن أخذ حظك من حسن الظن .

وقد ورد في الدعاء جعله من أفضل الأرزاق التي تطلب فقال : اللهم ارزقني اليقين ، وحسن الظن بك .

وقد ورد في الحديث ما هو أبلـغ من ذلك وهو أن الله يجيز دعوى حسن الظن وإن كانت كاذبة فعن الصادق عليه السلام قال : إذا كان يوم القيامة جيء بعبد فيؤمر به الى النار فيلتفت فيقول الله سبحانه وتعالى ردوه فلما أتي بـه قال له : عبدي لم إلتفت الى ؟ فيقول : يارب ما كان ظني بك هذا . فيقول الله جل جلاله : فما كان ظنك ؟ فيقول يارب كان ظني بك : أن تغفرلي وتسكنني برحمتك جنتك . قال فيقول الله جل جلاله : يامـلائكتي وعزتي وجلالي وآلائي وبلائي وإرتفاعي في مكاني ما ظن بي ساعة من خير قط ، ولو ظن بي ساعة من خـير ما روعته بالنار ، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنة . إنتهى الحديث فتأمل فيه ترى مالا يوصف . وبهذا الحديث الشريف وملاحظة أمثاله من مظان المواهب الألهية والنفحات الربانية يتقوى جانب من أن يكون ما عندنا من الظنون الحسنـة ، والآمال بمواهب ذي الجلال مندرجـة تحت حسن الظن بالله إذ هي إن لم تكن منه فلا أقل من أن تكون من أفراده الأدعائيه ، وقـد عرفت إنه بكرمه يجيزها ويعاملها معاملة الافراد الحقيقية ، وحكمه في الدارين واحد ، « وما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

واعلم أن حسن الظن ليس مقتضاه الخلود الى الراحة وترك

العمل معللا بحسن الظن بالله فان هذا من خدع الشيطان الرجيم أعاذنا الله منه وجميع المؤمنين بمحمد وآله الطاهرين بل مقتضاه الأنجذاب الى ما عند الله وشدة الرغبة في مواهب الله ، فان من أنس بمواهب الله جذبه الطمع ، وهانت عنده الشدائد ، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل .

وعن مولانا الرضا عليه السلام « قال : إن الله أوحى الى داود عليه السلام قال : إن العبد يأتيني بالحسنة فأدخله الجنة . قال يارب وما تلك الحسنه ؟ قال : يفرج عن المؤمن كربة ولو بشق تمره ، فقال داود عليه السلام : حق لمن عرفك أن لا ينقطع رجاؤه منك » إنتهى فاذا كان عز وجل يعطي هذه الجنة العظيمة التي عرضها السموات والأرض بشق تمره ، وفي بعض الروايات أنه يحكم بالجنة بشق تمره .

فبالله عليك كيف يسوغ ترك المعاملة مع هذا الكريم ، والتغافل عن معاملته طرفة عين وبأي شيء يستبدل عنه ، ومن فاتته لحظة لم يقبل فيها على الله فأي شيء يكون عوض مافاته هيهات هيهات لقد فاته شيء لا عوض له ، وغبن غبناً لا جبر له ومن اجل هذا المعنى وشدة رأفة الله بعباده المؤمنين جاءت الشريعة الغراء بترتيب المثوبات العظيمة على حركات المؤمنين وسكناتهم ، وحتى علم علي بن الحسين عليه السلام شيعته الدعاء بقوله : « اللهم اجعل همسات قلوبنا ، وحركات اعضائنا ،

ولحات أعيننا ، ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك » وقال : عليه السلام في بعض أدعيته « وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك » فمراد الله سبحانه في عباده المؤمنين أن لا يخسروا خسراناً لاجبر له بالغفلة عن معاملته وقد اجرته طرفة عين .

ولهذا جعل الطرق إليه بعدد أنفاس الخلائق بحيث أن « من شرب الماء ، وذكر الحسين عليه السلام ولعن قاتله كتب الله له مائة ألف حسنة ، ومحى عنه مائة ألف سيئة ، ورفع له مائة الف درجة ، وكان كأنما أعتق مائة ألف نسمة وبعثه الله ثلج الفؤاد » .

أترى صاحب هذا العطاء والمعد لهذا الجزاء يرضى أن يضيع على عبده المحتاج إليه ، وهو الغني المطلق نفساً من أنفاسه حاشا وكلا بل يريد من هذا العبد المسكين أن يكون مقبلا على ربه حيث انه لا خير إلا عنده ولا شرف إلا في الأقبال إليه فاذا أقبل هو على الله أقبل هو عليه ، وإذا أقبل عليه عامله بفضله وكرمه وهداه لأن يقصد بكل خطراته وحركاته وسكناته ونومه ويقظته رضاء ربه بما يقتضيه كرمه وجوده ومنه .

ومنه ما عن الباقر عليه السلام « قال إن الله أوحى إلى داود عليه السلام بلغ قومك انه ليس من عبد منهم أمر بطاعتي فيطيعني إلا كان حقاً علي أن أطيعه وأعينه على طاعتي وإن سألني أعطيته ، وإن دعاني أجبته ، وإن اعتصم بي عصمته وان

استكفاني كفيته ، وان توكل علي حفظته من وراء عوراتـه ، وان كاده جميع خلقي كنت دونه انتهى » .

وكذلك تأتي رأفته البالغة ورحمته الواسعة ان يبالغ في تحذير عبده المسكين عن التخطي إلى مالا يعنيه فضلا عما يضره . وفي بعض الخطابات القدسية على ما في الجواهر السنية : « ياأبن آدم اذا وجدت قساوة في قلبك ، وسقماً في جسمك ، ونقصاً في مالك ، وحرمة في رزقك فاعلم أنك تكلمت بما لا يعنيك وهو الفضول من الكلام ، فضلا عن المحرم فهو أضر على الانسان من السم ، إذ منتهاه أن يؤثر في الجسم ، والفضول من الكلام يؤثر قساوة في القلب ، والنقيصة في المال ، والحرمان في الرزق مع السقم فى الجسـد ، فكيف يرضي له الرب الرؤف بأن يعرض نفسه لهذه المهلكة العظيمة ، بل ورد « ان الله سبحانه يحاسب العبد على فضول النظر كما يحاسبه عل فضول الكلام فمن أجل أنه لا يريد أن يضيع على عبده البائس المسكين نظرة من نظراته جعل له النظر الى وجه العالم عبادة ، والنظر الى الكعبة عباده ، والنظر إلى ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله عبادة ، والنظر الى المخلوقات بعين الاعتبار عبادة ، واي عبادة فان التفكير الذي ساعة منه تعدل عبادة ستين سنة ، « فاينما تولوا فثم وجه الله » وعن الصادق جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن أبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « أوحى الله تعالى الى داود

عليه السلام كما لا تضيق الشمس على من جلس فيها كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها ولا تضره الطيره من لا يتطير كذلك لا ينجو من الفتنة المتطيرون » إنتهى .

وهذا الخطاب الآلهي القدسي من اكبر وأعظم الشواهد على ما أصلناه من أن المتطير لسوء ظنه بربه لاينجو من الفتنة فيقع في الهلكة ومن لا يتطير لحسن ظنه بربه لاتضره الاشياء التي يتطير منها ، وتدفع عنه ببركات حسن الظن بالله ، ومن دخل في رحمة الله بالأنقطاع الى أخبار أهل البيت عليهم السلام وأقتفى اثارهم لم تضق عليه بل لاتزال تتسع وتنفتح له الابواب التي كل باب ينفتح منه ألف باب حتى يوصله الى مقام إنشراح الصدر بنور العلم والمعرفه وهو من أفضل ما اثنى الله على نبيه صلى الله عليه وآله حيث يقول : « ألم نشرح لك صدرك » فاذا من الله عليه بالوصول الى هذه الرتبة فهو من الذين لايوصلهم بلاء الدنيا ، ولا بلاء الاخرة ، وبمعنى أنه لو أصابه نوع من البلاء فهو عند غيره بلاء ، وبحسب نظر الناس ، والا فهو عنده في جنب ماعرفه الله من إيصاله الى رضاء الله وبحسب مايطلب منه من المراتب السامية عند الله تعالى من أكبر الملاذ وأهنأ العطاء ، ولذا كان بعض خواص الحسين عليه السلام من أهل الطف كلما إشتد عليهم البلاء تشرق وجوههم ، وتستبشر نفوسهم ورقنا الله واياكم هذه المقامات وأين أبناء الملوك عن هذه اللذات وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير .

الباب الخامس

في ايضاح عجز الأنسان من حيث هو ، وعلو شأنه من حيث ارتباطه بالمبدأ الأعلى وتعلقه به

أيها الاخ الغافل عن إصلاح نفسه والمتغافل عن حقيقة أمره أن لك أيها المسكين جهتين وإعتبارين أحدهما من حيث نفسك وذاتك ومن حيث أنت أنت ، وإلى هذه الجهة غالب نظرك وملاحظتك ، وأنت من هذه الجهة فانٍ مضمحل زائل لا قدر لك ولا قيمة ولا اعتداد بك ، ولا مبالاة بك ولا احتفال ، بل لست شيئاً مذكوراً .

والجهة الثانية لك من حيث أنك متعلق القدرة الالهيه ، ومظهر العظمة الربانيه ومخلوق لهذا الخالق العظيم الشأن عز وجل وبهذه الجهة صرت مرتبطاً بكل العالم من العرش الى الثرى ومن السماء السابعة العليا إلى الأرض السابعة السفلى ، فضلا عما بين المشرق والمغرب وجميع من في أقطار الارض ، فان أنت فعلت بنفسك خيراً أثرت في جميع العالم خيراً ، وبالعكس ، فان أشكل عليك ذلك فان لك مثالا تحت العرش يعمل مثل ما تعمل ، فان عملت قبيحاً القى الله على مثالك ستراً وغطاه لئلا تفتضح عند أهل العرش ، وإن عملت حسناً أظهره الله لهم وهو معنى قوله : « يامن أظهر الجميل وستر القبيح » على ما رواه شيخنا البهائي في مفتاحه عن الصادق عليه السلام أنه قال : « ما من مؤمن إلا وله مثال في العرش فاذا إشتغل العبد بالركوع والسجود ونحوهما فعل مثاله مثل فعله فعند ذلك تراه الملائكة ويصلون ، ويستغفرون له ، واذا اشتغل العبد بمعصية أرخى الله

على مثاله ستراً لئلا تطلع الملائكة عليها » .

وكذلك لاشك أن أعمالك كل يوم ، وكل صباح ، وكل مساء ، تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة عليهم السلام خصوصاً صاحب العصر عجل الله فرجه ولي الامر فما كان منها حسناً سرهم حتى قال أحدهم : والله لرسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ بالحاجة يقضيها المؤمن لأخيه من صاحب الحاجة ، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته أقطار العالم وأركانه ، والعالم كله رعية من الملائكة وغيرهم فمن أدخل للسرور على سلطان العالم فقد أثر في الرعية كلها سروراً تبعاً لسرور الملك والسلطان فيضج العالم بالدعاء لهذا العبد المحسن سرك الله كما سررتنا وإن أساء أساء النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته ولذا تجف الاشجار وتفسد الثمار وتقل الامطار وتغلى الأسعار ، وقد بان لك أيها المسكين تأثير طاعتك ومعصيتك في كل العالم فضلا عن خصوص الملائكة الموكلين بك وفضلا عما تقدمت الأشاره اليه من تأثير الطاعه والمعصيه في الأعقاب ، وفي أعقاب الأعقاب ، ومن وصول النفع لكل المؤمنين ممن مضى وممن بقي ممن يقول : اللهم إغفر للمؤمنين والمؤمنات حتى ورد « أن جميع المؤمنين والمؤمنات يشفعون لمن يقول ذلك ويقولون هذا الذي كان يستغفر لنا » .

ورد في الأخبار « أن العالم يستغفر له من في السماوات

ومن في الارض حتى الحيتان في البحار ، وقال سبحانه الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا - الايه - ولا يخفى إن من يكون مجتهداً مشهوراً بحيث ينفع بتقليده من في المشرق ومن في المغرب كما ينتفعون بكتبه ومصنفاته وسائر أنواع هدايته وارشاداته في حياته وبعد وفاته .

فاذاً قد ظهر لك سريان تأثيرك في كل العالم من الجهة الثانية فيك وكونك متعلق القدرة الألهية ومظهر العظمة فكيف يسوغ أيها المسكين غفلتك وتغافلك ، ملتفتاً الى الجهة الأولى التي لست بها شيئاً مذكوراً ولقد صدق مولانا أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول :

دواؤك فيك ولا تبصر ودائك منك ولا تشعر
أتحسب أنك جرم صغير وفيك إنطوى العالم الاكبر
وأنت الكتاب المبين للذي بآياته يظهر المضمر

ولئن أمهلت نفسك فما ربك بمهمل لك قال الله تعالى : « أيحسب الأنسان أن يترك سدى » .

فتيقظ أيها الغافل والحظ الجهة الثانية التي صرت بها إنساناً ، وكذلك سمّاك ربك فان كنت ترى نفسك من اهل الشقاوة ، وعن السعادة نائياً ، فاعلم أيها المسكين أن الله « يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب » واحذر أن تكون شيطاناً في

صورة إنسان ، واعلم انك إن اخترت لنفسك ذلك فقد أضعت توجه العناية الأهية إليك وأفسدت العالم كله بفسادك ، وكدرت قلوب الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، وجميع أهل السموات والارضين ، وضجت الأرض الى الله من مشيك عليها ، والسماء من استظلالك بها ، وورد أن الأرض تضج الى الله من بول الأغلف أربعين صباحاً ، وهو فعل مكروه من المكروهات فكيف بك .

وبالجملة يامسكين انت مبارز الله وجميع من هو ملك لله تعالى أعداء لك ، فاين تذهب عن ملكه ، وجميع مخلوقاته تطلب الأذن منه بالانتقام منك ، فانى بمقاومتها كلها ، وانت الضعيف الحقير ، ومن يؤويك وقد بارزته وحاربته فلا مفر لك منه إلا إليه « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » وكل من خاف من أحد هرب منه إلا الخائف من الله فانه يهرب اليه ، فإن أنت هربت إليه عز وجل فاستمع لما رواه الصادق عليه السلام عن جده رسول صلى الله عليه وآله عن الله عز وجل : إنه يقول: لا أطلع على قلب عبدي فاعلم فيه حب الأخلاص لطاعتي ، وابتغاء وجهي ، إلا توليت وتقويمه وسياسته .

وعن النبي صلى الله عليه وآله عن الله عز وجل قال : « إذا علمت أن الغالب على عبدي الأشتغال بي نقلت شهوته في مسئلتي ، ومناجاتي ، فإذا كان عبدي كذلك فاراد ان يسهو

حلت بينه وبين أن يسهو ، أولئك أوليائي حقاً ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا اردت أن أهلك أهل الارض بعقوبة زويتها عنهم من اجل اولئك ، هؤلاء الأبطال » انتهى هذا الحديث الشريف أنظر إليه كيف اشتمل آخره على أن الله كيف يدفع العقوبة والهلكة عن اهل الأرض بوجود اولئك الاولياء ، فنفس وجودهم صدقة على العالم حيث كان باعثاً على حفظهم من الهلكة .

وبالجملة فهذا العالم مرتبط بعضه ببعض وهو بمنزلة الشخص الواحد إذا دخل ألم في عضو من أعضائه سرى إلى الكل ، فاذا نزل ذلك الألم عن ذلك العضو فقد أراح الكل من ذلك الألم .

وورد في الحديث : أن العبد إذا حمد الله شمله ذلك الدعاء من كل المصلين ، لأن المصلين يقولون : « سمع الله لمن حمده » فانظر إلى العبد كيف ارتبط بكل المصلين في العالم ، ودخل تحت دعائهم بكلمة واحدة .

كذلك من عمل عملا بإتقان دخل تحت دعاء النبي صلى الله عليه وآله بقوله : « رحم الله من عمل عملا فأتقنه » . ولا ريب ان دعاء النبي صلى الله عليه وآله مستجاب ومن أدركته الرحمة من الله نجى من الهلكة .

ومن في هذا العصر يتمنون ، ويشتاقون أن يكونوا في عصر النبي صلى الله عليه وآله حتى تدركهم منه دعوة ، ويتخيلون

أن هذا أمر قد فات ، ولا تدارك له ، وهو اشتباه ، فان تعرضهم لدعاء النبي صلى الله عليه وآله ، ووصوله اليهم ممكن في هذا العصر بأيسر وجه كالذي قلنا : من عمل عملا بإتقان فيدخل تحت دعاء النبي صلى الله عليه وآله بالرحمة ومن كان يصوم يوماً من شعبان مثلا فيدخل تحت دعاء النبي صلى الله عليه وآله بقوله : « شعبان شهري رحم الله من اعانني على شهري » وحاشا النبي صلى الله عليه وآله أن يحرم أهل هذا الوقت من بركات دعائه الشريف ، بل قد وضع أدعية شريفة لأهل عناوين عامة فمن شاء أدخل نفسه تحت عنوان من تلك العناوين الشريفة فيشمله ذلك الدعاء المستجاب .

أنظر إلى نفسك ياأخي كيف عرضك برحمته بالدخول تحت هذه العناوين الشريفة التي هيأت لك لأن تدخل نفسك فيها ، وأنت بغفلتك وتغافلك تريد ان تدخل نفسك عناوين خبيثة يتوجه اليك كل من في العالم بالدعاء عليك .

فانه من كدر مؤمناً من المؤمنين كدر رسول الله صلى الله عليه وآله لذلك ثم علياً عليه السلام ثم الحسن ثم الحسين ثم الأئمة عليهم السلام ثم من في العالم كله ، فيضج عليك العالم ضجة واحده : كدرك الله كما كدرتنا فيا أخي شأنك عظيم ، وخطرك جسيم ، وأنت بين حالتين . في كل أطوارك وأحوالك إما أن تقبل على الله أو تعرض عنه فإن أقبلت عليه أقبل هو عليك ،

وإن أعرضت عنه أعرض عنك وأعرض لأعراضه عنك كل شيء ، وأنت بينهما لا تنفك عنهما .

فيامن هو على المقبلين عليه مقبل ، وبالعطف عليهم عائد متفضل . أرزقنا اللهم التوفيق لما يوجب دوام الأقبال عليك ، ودوام إقبالك علينا ، وحسن أدبنا بين يديك إنك أرحم الراحمين وصلى الله على محمد خير خلقه وآله الطيبين الطاهرين .

الباب السادس

في الأمور المستفادة من الحقيقة الواضحة :

كل شيء يهون بالنظر لما فوقه

وكيف يسلك عباد الله

الطريق اليه

إعلم أن كل شيء يهون بالنظر الى ما فوقه ، وما هو أشد منه ، بل يضمحل ويفنى ولا يكون شيئاً مذكوراً ، كالذي تشوكه شوكه فيلدغه عقرب ، فلا ريب أن الشوكه تكون عنده نسياً منسياً ، ولا ذكر لها عنده بوجه من الوجوه فالباري سبحانه وتعالى قد قهر كل شيء من الأشياء بوجود ما فوقه .

أنظر الى عظمة أمير المؤمنين عليه السلام ، وشدة بأسه وبطشه ، وبلوغه في كل كمال أقصاه ومنتهاه ، كيف يتصاغر عند ذكر محمد صلى الله عليه وآله ، ويقر على نفسه بالعبودية حيث قال : أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله .

وهذه قاعدة محسوسة في سائر الممكنات والموجودات ، فإذا أردت أن تهون عليك الدنيا ، وشدائدها فانظر إلى ما هو أشد ، وأصعب ، وتأمل أن لو أضيف إلى ما أنت فيه شدة أخرى مما هو أشد عليك كيف كنت تصنع ، فحينئذ يهون عليك ما أنت فيه بالنسبة إلى ما هو فوقه ، وترى تلك الحال نعمة ، وتقول : الحمد لله الذي لم يشدده علي ، ولو شاء لفعل .

وكذلك إذا أردت أن يهون عليك إستحسان ما يتفق لك من الأعمال الحسنة ، بحيث تخلص من الأبتهاج الذي هو مادة العجب ، والافتخار ، فانسبه إلى ما هو فوقه من الأعمال الحسنة مما يعملها من هو فوقك ، ومن هو أحسن منك ، أو أنت إذا ترقيت عن المقام الذي أنت فيه ، فانك ترى ذلك العمل ذنباً

وتقصيراً يحتاج إلى الأعتذار ، وتستحي من نسبته الى نفسك ، فضلا عن إفتخارك وابتهاجك به ، وأنت إذا إعتدت هـذه الحالة باذن الله الكريم المتعـال سرت إلى الله بلا إنقطاع ، إذ ليس لمحبته غاية ولا نهاية ، إذ كلما تدرجت إلى مقام في الأخلاص والعمل ، شاهدت مقاماً أعلى وأبهى وأسنى وأرفـع . فإن كنت تريد النهاية بـه فليس هناك نهاية تصل اليها ، وتقف عندها ، وإن كنت تريد الوقوف من دون مانع عن الترقي فلا يسوغ لك ذلك ، إذ الكريم سبحانه يستدعيك بلطفـه وجوده إلى القرب منه فبأي شيء تستبـدل منه وإلى أي شيء تتحول عنه ، لقد خاب من رضي دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا .

فحيث إتضح بصريح العقل أنه لابد من السـير الى الله بسلوك سبيل طاعته بلا إنقطاع ، فاعلم أن ذلك إنما يتم لك بأن تكون في وقوفك عن الطاعة ملاحظاً وجهـاً آخر من وجوه الطاعة ، فان الله سبحانه يحب الأخذ برخصته ، كما يحب الأخذ بعزائمه ، فمن يكون طالباً لمحبة الله سبحانه وتعالى يفتح الله له هذا الباب : بأن يجعل فعله للعباده المندوبة الراجحة جالباً لمحبته عز وجل فانها بالذات كذلك ، وكذلك يحصل تركه لهـا في مقام يخشى على نفسه الملـل والنفرة عن الطاعة كما هو مقتضى الطبع البشري مرخصاً فيه من الله وهو يحب الأخـذ برخصته

فيكون تركها جالباً لمحبته عز وجـل بالعرض ، وان لم يكن بحسب الذات كذلك ، فيكون العبد متعرضاً لمحبته عز وجل في فعله وتركه ، إن هـذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هـذا فليعمل العاملون .

ويشهد لهذا المعنى إختلاف المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن مولانا الحسن بن علي فعن الأمير عليه السلام إنـه إذا عرض له أمران كلاهما رضا الله إختار أشدهما على نفسه وعن الحسن عليه السلام أنه يختار أسهلهما على نفسه فالثاني من باب أن الله يحب أن يؤخذ برخصته كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ومن باب الاقتصاد في العبادة ، ومن قولهم إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا إلى عباد الله طاعـة الله ، ومن باب مخادعة النفس بالجلب الى طاعة الله ، والأول وجهه ظاهر فانه من باب المخالفة للنفس الذي هو مفتاح البركات ، وكلاهما في مقام الأرشاد للعباد والهدايه للخلق وإلا فمقاماتهم في أنفسهم بما تقصر عنه العقول والاحلام ، وهم أعرف بها .

وكذلك لابد لك من التروي في العمل والتدبر فيـه حتى يتأتى إيقاعه على الوجه المطلوب ، وحتى يتحرر انه منبعث عن داعي الأخلاص ، وذلك في الغالب يقتضي مـدة ومهلة ، مع أن كل شيء أخرته فللشيطان فيه نظرة ، وللتأخير فيه آفات ، وفيه يخشى الفوات .

فاذا تعارض عليك هذان الأمران ، حيث أنك بالتـأخر تخشى الفوات ، وبالتقـديم ، والاستعجال تخشى فساد العمل بعدم التروي والتأمل ، ومخادعة الشيطان (لع) بإبرازه لك في صورة الطاعة وهو في الحقيقة لداعي النفس والشيطان فيكون من نوع المعصية ، فطريق الخلاص من هذا التعارض أن تعلم أن التأخر الذي للشيطان فيه نظرة ، وفي الغالب أن يكون مفوتاً للعمل إنما هو التأخر عجزاً وكسلا ، وحرصاً عل المال ومحبة لأن يبقى في قبضتك ولا تنفقه فيخرج من يدك . هـذا هو التسويف المهلك للعالم ، وهذا لاشك في قبحه ، ووجوب مجاهدة النفس ومخادعتها لأن تسلم منه ، وأما التأخر لأجـل التروي والأتقان فهو مطلوب ومحبوب ومأمور به من قبل رب العزة فلا يستتبع ندامة ، ولا يكون مفوتاً للخير ، لأنك محسن بامتثالك الامور ، « وما على المحسنين من سبيل » .

مع ذلك إذا أردت أن تتقن الأمر ، وتضبطه فاجعـل تأخيرك مقروناً بالتوكل على الله في أن يمكنك منه في الوقت الذي تؤخره إليه ويعينك ، واجعل تقديمك للشيء عند مجاذبة داعي الكسل ، والحرص الى التأخير مقروناً بالتوكـل على الله في أن يعينك على إخـلاص المشيئه فيه ، وإيقاعه على وجـه محبوب إليه ، والجالب لرضاه .

فاذا قرنت الأمر بالتوكل في كل من التأخير ، والتقديم ،

وإجتهدت في تشخيص الداعي إلى التقديم والتأخير ، فان كان هو الحرص على الشيء بالرغبة النفسانية ، والكسل ، والحرص على ما في يديك : لم تذبعث لهذا الداعي الفاسد .

وان كان المحرك على كل من التقديم والتأخير داع صحيح انبعث له ، فأنت محسن في تقديمك ، وتأخيرك ، وما عليك من سبيل ، وأنت جالب لمحبة الله بكل من التقديم والتأخير كالذي قدمناه لك من أنك متعرض لمحبة الله في فعلك وتركك .

فإن كان العبد متعرضاً لمحبة الله بفعله ، وتركه ، وتقديمه وتأخيره تم له السير إلى الله بسلوك سبيل طاعته بلا انقطاع ، وحاشاه حاشاه أن يقطع من انقطع إليه ، وقرع بابه .

ثم لا تتوهم انحصار طريق القرب إلى الله بالعبادة المعلومة من الصلاة ، والصيام ، وتلاوة القرآن ، والتعلم ، والتعليم ، واستعمال الأدعية ، والزيارات ، ونحو ذلك ، بحيث يكون كل ما خرج عن ذلك لغواً ، وتضييعاً للعمر فيما لا فائدة به كما ظنه كثير من إخواننا الصلحاء .

فان ذلك قصور واشتباه للأمر بك .

إعلم أن مراد الشارع الأصلي من المكلفين تقوية البصيرة لكي يطيعوه بالبصيرة التامة ، والمعرفة الكافية ، وكل ماله دخل في تقوية البصيرة ، وزيادة الفطانة ، وهو داخل في مراد الشارع ومطلوب له بل يكون طلبه له ، وحثه عليه آكد من غيره .

من اقتصر على العبادات التي ذكرناها وقصر نظره عنها يغلب عليه الجمود ، وتقل فطانته بالموضوعات الشرعيـــة في القبلة والوقت ونحوهما ، ويتمكن من خديعته من يريد الخديعة له في دينه من شياطين الأنس والجن ، وهذا خلاف مراد الشارع ونقيض غرضه ، بخلاف من يمارس الأمور ببيع وشراء ويتعلم الآداب ، ومحاورة الخطاب ، والنكت المستحسنة للسؤال والجواب ويضيف ذلك إلى عباداته وأوراده ، وعلمه ، وتعليمه هو الرجل كل الرجل ، نعم الرجل والوجدان والأختبار لذلك أعظم شاهد.

وكلما سرحت نظرك في تعلم شيء من الصناعات المحسوسة فتح لك أبواباً من العلم في المعقولات ، والأصل في ذلك أن الله سبحانه قد ربط المحسوسات بالمعقولات ، والأمور الأخرويـة بالأمور الدنيوية ، فمن أراد الأمور الأخروية بغـير الأمور الدنيوية لم يتأت له ذلك ، فقد جعل الله الأمور الأخروية لاتتم إلا بالدنيوية وجعـــل الدنيا المقصود بها التوصل إلى الآخرة محسوبة من الآخرة ، ولا تدخل في مذام الدنيا ، ولذا ورد في الحديث « انه ملعون من ترك آخرته لدنياه ، ملعون ملعون من ترك دنياه لآخرته » انتهى .

معنى الحديث فإن الدنيا التي يلعن من تركها للآخرة وهي التي يتوصل بها إلى الآخرة ، ولا تتم أمور الآخرة إلا بهـــا وهي في الحقيقة من الآخرة ، وتركها ترك الآخرة ، والدنيا المذمومة

هي التي لا يقصد بها التوصل ، وهي الفضول التي لا يتوقف عليها شيء .

فالنوع الاول من الدنيا كما لابد منه في التوصل وهي واجبة ، لذلك ايضاً بإذن الله جعل الخوض فيها مفيداً للفطانة وتقوية الفهم والبصيرة ، وهو معنى ما في روايات التجارة : إنها نصف العقل ، وروي ايضاً : « أن العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في التجارة وجزء واحد في جميع الطاعات » ويؤيد « أن النبي صلى الله عليه وآله اتجر قبل للبعثة إلى الشام » وغيره من الأنبياء والمرسلين ، فهذا الانسان فاقد لكل الكمالات وهو محتاج إليها كلها ، والكل منها نفع في شيء خاص ، وكلها من حيث الجملة تفيد تقوية العقل ، وزيادة الفطنة والبصيرة ، فأقتضت الحكمة الألهية ان تكون هذه الكمالات مفرقة في العالم وأن يكون كثير منها متداولاً على ألسنة للناس شايعاً بينهم حتى يصل إلى كل أحد نصيبه ، ولهذا أمر بأن تقبل كلمة الحكمة فمن جاء بها كائناً ما كان ، حتى قالوا عليهم السلام « خذ الحكمة ولو من أهل النفاق » وقالوا عليهم السلام : « خذ العلم من أفواه الرجال » .

فلما أراد الشارع الحكيم هذا العبد أن يستوفي نصيبه من الحكم والمعارف بذلها له في العالم حتى يتيسر وصولها إليه ، وأمره بقبولها فمن جاء بها ، فإن أهل البيت عليهم السلام أمروا شيعتهم

« أن يعرفوا الرجال بالحق ، ولا يعرفوا الحق بالرجال » فقال عليه السلام : « انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال » وقالوا: « غريبتان : كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها ، وكلمة سفه من حكيم فاغفروها » فالكمال كل الكمال إنما هو إكتساب من أقوال وأفعال ، أو معاملات ، أو تجارب ، حتى ورد عنهم عليهم السلام « إن للعقل حفظ للتجارب ، وخير ما جربت ما وعظك » وإن التجربه علم مستفاد .

فما انقدح في نفوس جملة من الأخوان : من الأقتصار على هذه العبادات المألوفه ، وقصر النظر عليها جربناه ، واختبرناه وتأملنا في الأحوال الماضية من أهل الأعصار السابقة ممن نقل إلينا حاله فوجدنا مستلزماً للبلادة وقلة الفطانه ، غير موصل صاحبه إلى الترقي ، واكتساب المقامات الرفيعة ، فأحببنا التنبيه على أنه من خدع الشيطان الرجيم (لع) التي يحبسه بها عن الأنتقال إلى المقامات الرفيعة ، والرتب السنية .

ومما يهتدى اليه باستسهال الشيء بالنسبة الى ما فوقه إستحقار الدنيا وشئونها وأطوارها بنسبتها إلى أمور الآخرة ، وأحوالها واطوارها ، فالواجب على من يريد الأقبال على الله : أن يخرج هموم الدنيا عن قلبه ؛ فلا يفرح بشيء منها أتاه ، ولا يحزن على شيء منها فاته ، بأن يتدبرها في نفسها ، وينظر في فنائها وزوالها وسرعة تقلباتها ، وعدم دوامها على حال ، فالعاقل لا يليق به

أن يتوجه الى هذا الشيء الذي لا يستقر على حال ، بل هي في الحقيقة لا شيء . وثانياً بأن هذه الدنيا إن فرضناها شيئاً كما هو مقتضى تلبيس الشيطان (لع) الذي لبّس به على هذا الخلق بحيث أوهمهم بأنها في نفسها شيء حسن ، لكن لاريب وبالضرورة لا نسبة لها إلى ما هو أحسن من ملاذ الآخرة التي إجتباها الله لأوليائه ، واختارها لأصفيائه فعلى فرض أن الدنيا فيها شيء من الحسن فهو مضمحل عند نسبته إلى حسن الآخرة فاذا أدمت النظر وأحسنت الفكر إنجلى لك أن من يتوجه إلى شيء من أمور الدنيا من حيث أنها دنيا لا لأجل التوصل إلى الآخرة متوجه إلى العدم المحض والباطل الزائل . فياأيها الأخ اعلم أن طريقة أهل البيت عليهم السلام على أن تعرف بأنها ليست شيئاً في نفسها فمهما رأيتها شيئاً ، وتريد أن تتركها لشيء آخر أحسن منها فأنت لم تهتد الى طريقة أهل البيت عليهم السلام فأجمع فكرك ، وتضرعك الى ربك في أن يعرفك الدنيا على ما هي عليه عند أهل البيت ، لتكون في الذين يقتفون آثارهم ويتبعون منهاجهم وإلا فنحن بواد والعذول بواد .

واذا تبدّه عندك بعض النظر الصحيح والفكر الثابت المليح إن الدنيا ليست شيئاً يطلب ، ولا مما يصح أن يتوجه اليه القصد فلا مناص لك عن إنحصار قصدك وتوجهك فيما يرجع إلى الله وفيما يطلب الله فإذا إتفق أنه يصدر منك بعد ذلك شيء لا لله

سبحانه بل لمقتضى الطبع ، أو لميل النفس أو لمخادعة الشيطان (لع) فهذا مما لم يكن داخلا تحت قصدك ، ولا مندرجاً تحت إرادتك وعزمك ، بل أشبه شيء بالكلام الذي يقع منك غلطاً ، أو الكلام الذي أوقعك فيه الغير بحيلة ، أو خديعة أو أنه وقع منك نسياناً لما آنت بانٍ عليه ، أو سهواً عما أنت عازم عليه ، فيصح لك على هذا أن تقول في زيارة الجامعة : « مطيعاً لكم » حيث انك في حال القصد والتخلية لا تطيع إلا لهم ، ولا ترى غيرهم من أعدائهم أهلا للطاعة إلا أن تخدع ، أو تفر أو تسهو ، أو تغلط فتقع في غير مرادك وخلاف قصدك فيتأتى منك حينئذ التوبة الصادقة ، والاستغفار الصادق ، حيث أنك دائماً عازمٌ على عدم العود في الأثم ، وعلى الاستمرار على الطاعة ، ولا تكون ممن ورد فيه الحديث : « بأن المقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء بربه » فتخرج بما ذكرناه عن عنوان المستهزئين وكأنه الى هذا المعنى أشار سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة « إلهي أنك تعلم أني وإن لم تدم الطاعة مني فعلا جزماً فقد دامت محبة وعزماً » فكل ذلك يتوقف على خروج حب الدنيا من القلب ولو بالمعنى الذي ذكرناه بأن يكون بناء أمرك ، وتصميم عزمك على أن لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا من حيث أنها دنيا ، إذ هي بهذه الحيثية ليست مقصداً للعاقل بحيث تعد نفسك إذا فعلت ذلك لذلك داخلا في السفهاء ،

وخارجاً عن عداد العقلاء ، فاذا أتقنت ذلك بحيث تبـــدأ في نظرك ثم لك الغاية التي ذكرناها وغيرها مما في معناها فاغتنم ذلك ولا تكن من الغافلين .

الباب السابع

كيف نسلك الطريق الى الله

إعلم أن السالك سبيل الله ، والمتوجه لما عند الله يجب عليه أمور حتى لا ينقطع عليه الطريق ، فإن أدلاء هذا الطريق وهم اهل البيت عليهم السلام قد أرشدوا إلى أمور من عرفها سهل عليه ، وإلا انقطع به الطريق ، ورجع الى خلف رجوع القهقرى.

الاول : أن يعرف أن الخير كله عنـــد الله فلا يلتمس الخير الا عنده ولا يطلب من سواه فإذا عاشرت الخلق وباشرتهم فليكن ذلك طلباً لما عند الله ، وابتغاء لرضا الله ، بأن يكون همك الاحسان اليهم وإدخال النفع عليهم ، فإن الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله من أدخل النفع على عيـال الله ، كما في أخبار أهل البيت عليهم السلام فإذا أردت المرتبـــة العليا بأن تكون أحب الخلق إلى الله على ما إقتضـــاه الحديث الشريف فأتقن هذه المقدمة أولاً وهي أن تعلم بأن انتفاعك منهم بهـذا الطريق أعظم من نفعك لهم ، حيث أنك بسببهم توصلت الى أن تكون أحب الخلق إلى الله فلا تطلب منهم نفعاً غير هذا ، واقطع النظر عن كل ما سواه فما وراء عبادان قرية ، فاذا كان أصل معاشرتك لأجل أن تنفعهم ، ويصل منك الأحسان إليهم فوطن نفسك أولا على تحمل الأساءة منهم ، وعدم مكافأتهم بها ، وهذا أول إحسان منك اليهم ، ثم إذا وطنت نفسك على أن لا تكافىء المسيء باساءته فلا تقنع بذلك فانك تريد الاقتداء بأهل بيت سجيتهم الاحسان الى من أساء ، والعفو عمن ظلمهم

والوصل عمن قطعهم ، والأعطاء لمن حرمهم ، فلابد لك من توطين نفسك على أن تتمنى أن يسيء اليك أحد ثم تحسن اليه، حتى تتوصل بسببه الى تحصيل فضيلة الاحسان الى من أساء اليك فتحصل التأسي بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام حيث أن سجيتهم ذلك وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : « إن أحب الخلق إلى الله المتأسي بنبيه » فتحصل باساءته إليك ، ومقابلتك له بالاحسان الى هذا المقام العالي أولا ثم أنك مع فقرك ، ولؤمك ، وحاجتك ، إذا كافأت المسيء بالأحسان فالله سبحانه وتعالى بكرمه وغناه أولى على أن يكافئك على الأعمال السيئة بالاحسان ، فتحصل لك الحجة على اكرامه بذلك ثانياً .

بل هو سبحانه إنما أمرك بالأحسان إلى من أساء اليك لينبهك على أنك فعلت ذلك فأنا أولى بذلك منك وأنت أحوج إلى إجراء المعاملة هذه معك فأمرك بأن تجري هذه المعاملة ونفع هذه المعاملة العائد لك أعظم من النفع الذي أمرتك بأن توصله إلى من أحسنت المعاملة معه ، فلو أنك نظرت بعين البصيره لرأيت إساءته إليك حيث أوصلك إلى هذه المقامات إحساناً يستحق الشكر عليه ، فضلا عن المجازاة له بالاساءة .

وهذا كله على تقدير تحقق الأساءة إليك من الغير وإلا فعلى تقدير أنك ظالم أو تتظلم كما هو المشاهد في أحوال غالب

الخلق ، فالأمر أجلى وأوضح فإنا ما رأينا أحداً من الناس إلا وهو يشتكي ويتظلم ، ولم نر إلى الآن متنازعين ومتخاصمين من الأخيار ، ولا من الأشرار ، وأحدهما يقر للآخر أني ظالم لك ومتعد عليك بل لم نزل ترى الأخيار ، وأهل الصلاح والتقوى يتخاصمون وكل يدعي المظلومية من الآخر ، وانه صاحب الاحسان عليه ، والتحمل منه ، وهم ممن لا يتعمدون الكذب ولا يتجرؤن عليه ، فاعلم أن ذلك من مكائد النفس الامارة ، وتلبيسها الباطل بصورة الحق حتى تشبه الأمر على صاحبها .

ولهذا رد الشارع الحكيم شهادة العدل لنفسه ولم يجز التعويل في ذلك على عدالته فوجب على العاقل المنصف أن يتهم نفسه في حق نفسه ، ولا يقبل شهادته لنفسه ، كما لا يقبله الشارع .

فهذا غير الذي تعاشره وتباشره إن كان أصل معاشرتك أن تنفعه لا لأجل أن تنتفع منه فقد أرحت قلبك أولا بقطع الآمال من الناس ، وقطع الطمع عنهم ، وهذا هو الغنى الأكبر الذي هو غنى للنفس ، ثم أن أول صدقة منك عليهم أن تكف الأذى عنهم ، وأول ذلك أن ترتفع أذاك عنهم فلا تتعرض لهم بما يؤذيهم ، ثم توطن نفسك على تحمل الاذى منهم ، ثم إجعل همك إيصال الأحسان إليهم .

فإذا توطنت نفسك على ذلك فإن وصل إليك مكافأة بإحسان فهذي نعمة غير مترقبة ، فتكون أوقع في النفس وألذ

وإن رأيت أنهم قد قطعوا النظر عنها ، وتعلقت نفوسهم بان تقبلها ، منهم فاقبلها منهم فان قبولها الاحسان عليهم ، ولو لم تكن محتاجاً اليها فان ردها يكدّر خواطرهم ، وهو إساءة اليهم ، وقد وطنت نفسك إلى ترك الاساءة اليهم ، وأنت مأمور بذلك ، وإن كان إحسانهم الذي وقع مكأفاة مجرد تعارف ، ويتوقعون منك أن تردها عليهم فأقبلها منهم ثم ردها عليهم من باب الهدية الجديدة كما هو وفق إرادتهم ، وان كان مرادهم أن تقبلها منهم ، وتكافيهم عنها بعوض آخر أزيد منها فأقبلها منهم وكافئهم بالأزيد ، وهو الأحسان اليهم ، ولا تظهر لهم أنك فهمت أنهم أتوابها لاجل العوض ، بل أجر الامر على ظاهره فهو إحسان منك اليهم .

والحاصل ياأخي إن الله يأمر بالعدل والأحسان وكما تدين تدان .

واعلم أن عمدة الأحسان إلى الناس ليس ببذل المال ، فإنا رأينا كثيراً من الناس يبذلون المال ولا يكون ذلك إحساناً ، بل يستتبع إساءة ، وتكدير خاطر ، ويكون من قبيل صدقة يتبعها أذى بحسب الخارج ، وإن كال أصل قصدهم الإحسان ، لأنهم لا يعرفون وجهه وكل ذلك من إهمال قواعد أهل البيت عليهم السلام ، وعدم الألتفات الى طريقتهم ، فاذا اردت أن تقضي حاجة لأخيك المؤمن على وفق طريقة أهل البيت

عليهم السلام فاعلم أنهم قالوا : « إن قضاء الحاجة تتم بأمور تصغيرها لتكبر ، وتعجيلها لتهنأ ، وكتمانها لتظهر » وما لم تجتمع هذه الأمور لا تكون الحاجة تامة ، بل تكون ناقصة ، مكدرة بل ربما كانت أذية على صاحب الحاجة .

وعادة الخلق أنهم إذا قضوا حاجة يخلون بهذه الأمور كلها فلا يتم في أعمالهم قضاء حاجة على وجهها ، وهذا هو العظيم حيث انهم يتجرعون مرارة إنفاق المال ولا يترتب عليه الثمرة المطلوبة الذي هو إدخال السرور في قلب المؤمن ، وتراهم إذا قضوا حاجة يوعدون بها اولا ، ثم يماطلونه ، فيبقى يتجرع مرارة الأنتظار الذي هو أشد من القتل ، ثم يتجرع مرارة اليأس من الحاجة مراراً معددة ، ثم بعد حين تقضى الحاجة وقد تحمل مرارة المطالبة ، ومرارة الخجل ، مع مرارة الأنتظار ، ومرارة لليأس ، ومرارة الفشل من الناس الذين وعدهم ، معتمداً على وعدهم الذي وعدوه فأخلفوه فأي لذة تبقى بعد هذا ، بل كان إثمها اكبر من نفعها .

وكذا عادتهم في الحاجة أنهم لا يصغرونها ، ويقولون هذا أمر جزئي ، بالنظر إلى قدر المؤمن الذي في بعض الروايات أن حرمته أعظم من حرمة الكعبة ، بل يظهرون أنا قد فعلنا معك إحساناً عظيماً ، بحيث يتوقعون أن يترك العبودية لله عز وجل ويصير عبداً لهم .

وكذلك لا يخفونها على الناس حتى تقرب من الأخلاص وتبعد عن الرياء وتكون من قبيل العمل الخالص الذي في الحديث: « عليك إخفاؤه وعلي إظهاره » . بل يظهرونها لجميع الخلق ، ويذلونه في جميع العالم ، فهذه عادة الخلق المنحوسة والعيان فيها يغني عن البيان .

فعلم مما ذكرناه أن الأحسان ليس عمدته بذل المال ، بل عمدته ملاحظة الأمور التي ذكرناها .

والأحسان إلى كل شخص إجراء الأمر على وفق مرادة ، والتحذير من تكدير خاطره ، فمن يكون مراده أن تقبل منه فإحسانك بقبول ذلك الشيء منه ، إن أردت أن تكون يدك العليا فكافئه عنه بأحسن منه ، أو مثله ، إلى غير ذلك مما لايخفى على المتأمل المراعي لدقائق أهل البيت عليهم السلام ، لوصاياهم وسجاياهم .

فاذا تمت لك المعاشرة مع الخلق لأن تنفعهم ، وقطعت نظرك عن الأنتفاع بهم بالمرة بحيث أن كل نفع تؤمله منهم تعدل به إلى من لا تخيب عنده ولا يقربه البخل في حال ، فلا تستغرق أوقاتك بالخلق ، وتجعلهم شغلك وهمك ، فأنك مأمور من اهل البيت عليهم السلام : أقلل معارفك ، وأنكر من عرفت والحكمة في ذلك : أن لا يشغلوك عن التوجه إلى خالقك ، فإن في التفرغ للعبادة ، وخلو البال عن كل شاغل يشغلك عن الله

معنوية لا تنال بمعاشرة الخلق، وفي الحمية معنى ليس في العنب ولهذا قال احد الائمة عليهم للسلام لمن قال له خلوت بالعقيق وتعجلت بالوحدة: ياهذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت من نفسك، فالمراد انك حيث تحتـــاج إلى معاشرة الخلق لابد أن يكون طورها على ما وصفناه لك.

وليس المراد أنك تجعل شغلك الأشتغال بمصالح (الخلق) فلابد من توزيع الوقت وتقسيمه فتجعل لك وقتاً للتضرع إلى الله ووقتاً لمعاشرة الخلق، بان يكون جالباً لرضاء الله، ومقصوداً به وجهه، وليكن حظك من الأول أوفى، وليكن هو همك وبغيتك فأنه المطلوب منك بالأصالة، وحتى يتأتى لك إرجاع الثاني إلى الأول وإلا ملت بـــه إلى حظ النفس، وصار وبالا عليك، فلا تنال منهم دنياً ولا آخرة، ووقعت فيما فيه الناس من الظلم، والتظلم، وألم الشكوى من جميـــع المعاشرين، كما أنهم لا يزللون في الشكاية منك فلا تنال رضاهم أبداً.

لا خير ولا راحة إلا في الأقبال على الله، والتوجه عليه، وبذلك يسهل كل شيء من مهمات الدنيا والآخرة، وكل تعب، وهم وشدة، وغم فإنما يترتب على الغفله عن الله، والأدبـار عنه وهذا مـا يتعلق بالأمر الأول من الأمور التي تلزم من يريد أن يسلك سبيل الله.

الثاني أن يراعي حقوق الخلق في الله فإن مراعاة حق الخلق

في الله مراعاة لحق الله ، كما أن إهمالها إهمال لحق الله فإذا أردت ذلك فاعلم أن لهولاء حقوقاً كثيرة يلزمك أن تعرفها حتى لاتجهل حق الله فيهم ، فإذا عرفتها إستعنت بالله على أدائهـا ، والقيام بها ، وإذا عجزت عنها كان إعترافك بالعجز قائماً مقام القيام بها .

فأحدها انهم يقولون (علي ولي الله) وكـل من يقول هذه الكلمة ، الشريفة كيف يمكنك القيام بحقـه ، بل كيف يمكنك معرفة حقه ، بل كيف تتصور حقه ، هيهات .. هيهات حق من يعترف بهذه الكلمة تابع لحق من هو منسوب اليه وهو علي عليه السلام ، وحقه تابع لحق رسول الله صلى الله عليه وآله وحق رسول الله صلى الله عليه وآله تابع لحق الله تعالى ، وكيف يمكن القيام بحق الله وقد قال رسول الله صلى الله عليـه وآله لأبي ذر « إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد ، وإن نعم الله اكثر من أن يحصيها العبـاد ، ولكن أمسوا تائبين ، وأصبحوا تائبين » وقد قال رسول الله صلى الله عليـه وآله لبعض أصحابه وهو بشير إلى علي عليه السلام « والِ ولي هـذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك ، وعاد عدو هـذا ولو أنه أبوك وولدك » فإذا أوجب له إنتسابه لعلي عليه السلام ، وموالاته له أن تسامحه في قتله لأبيك وولدك ، وتغفر له ذلك ، فكيف بما دون ذلك ، بل لا يكتفي منك بمجرد المسامحـة والعفو ، بل يجب له مع ذلك أن تحبه ، وتكرمه ، وتحترمه ، كما هو مقتضى

الموالاة بل لو فديت له نفسك لكان قليلاً في حق من هو منسوب إليه ، ولقد أجاد الشاعر حيث يقول :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فأنت إذا تسامحت مع محب أمير المؤمنين (ع) فالله أولى بمسامحتك ، وأن يغفر لك كل ذنب إكراماً لمحبتك إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الله أشد حباً منك لأمير المؤمنين عليه السلام وكلما كان مقصراً في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ولاحظت مجرد الانتساب ، واحترمته لذلك فيكون إحترامك لأمير المؤمنين عليه السلام أعظم ، إذ من هو بذاته مستحق للاحترام ربما يكون احترامك له من جهة قابليته بذاته للأحترام لا لجهة الأنتساب المحض ، فيكون دالا على شدة الأحترام ، إذ لولا القوة ، والشدة لما غلبت على الموانع المعارضة ، فهذا أحد الحقوق فيه الكفايه ، وأنى لك بالقيام به ، فكيف إذا انظم إلى ذلك أنه من ذرية علي عليه السلام ، فكيف إذا إنظم اليه كونه من زائريه ، أو كونه من مجاوريه ، أو من خدام حضرته ، أو إسمه إسمه ، أو إسم أحد أولاده عليهم السلام ، أو كونه يسمى بما يدل على الانتساب اليهم ، كعبد علي ، أو عبد الحسين .

وأما حق الرحمية وحق المجاورة وحق المرافقة وحق الدعاء وحق تعليم القرآن أو تعليم حرف من العلم ، أو كمال من الكمالات أو كونه أكبر منك سناً ، أو كونه مجتهداً لك ، أو إماماً لك

في الجماعة ، أو كونه محسناً الى بعض أرحامك ، أو إلى بعض جيرانك ، أو كونه سائلا عنك ، أو طالباً ، أو محسناً بك الظن أو نحو ذلك مما إشتملت عليه رسالة الحقوق لمولانا علي بن الحسين عليه السلام ، وكلها حقوق عظيمة عند أهل البيت عليهم السلام ، ومسؤول عنها يوم القيامة ، فانى لك بالخلاص منها ، والعذر عنها ، وقد ورد ما معناه ، أن ثلاثة يشكون يوم القيامة إلى الله : مسجد مهجور ، وقرآت مطروح في البيت عليه غبا لا يتلى فيه ، وعالم في محله لا يسمع منه . فما حال من أبرز للحساب وإجتماع للشكوى عليه عند الحاكم العادل ثلاثة : بيت الله . وكتاب الله ، وولي الله ، فأيهم لا يسمع شكايته ، وأي هؤلاء ينكر حقه وحرمته عند الله ؟ فهذه حقوق عظيمه كيف يمكنك الأعتذار عنها في ذلك الموقف العظيم ، فقد ورد « أن العاطس يعطس فلا يشمت فيطالب بحقه فيقضى له يوم القيامة » .

فياأيها الأخ المسترشد أنت إذا نظرت بعين العقل التي أودعها الله فيك لتبصر بها لا يكون همك إلا الأعتراف بالتقصير والسعي في خلاص رقبتك من الحقوق التي لزمتك ، وترى أنهم وإن بالغوا في مسائلتك فأنت بعد مطالب بالحقوق التي لهم عليك ، فيكون همك استعفائهم ، والأعتذار منهم ، والبالغة فيما يمكنك من الأحسان إليهم ، رجاء ليعفو الله ، ويرضيهم عن

بعض الحقوق . فأنت إن نظرت إلى الخلق بهـــذه العين التي أودعها الله فيك سهل عليك سلوك سبل الله وهذا هو الأمر الثاني.

الثالث أن يستوحش من الخلق أنساً بالله ، فإن العاقل يلزمه أن يكون مقبلا على شأنه ، حافظاً للسانه ، عارفاً بأهل زمانه ، مستوحشاً من أوثق إخوانه فمن هو هكذا دعا له علي عليه السلام بقوله : « شد الله من بهذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه » وفي الكافي عن جابر قال : « دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال ياجابر والله إني لمحزون ، والله إني لمشغول القلب . قلت : جعلت فداك وما شغلك ، وما هم حزن قلبك . فقال : ياجابر إنه من دخل قلبه خالص دين الله شغل قلبه عمن سواه » وفيما كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أصحابـــه : « فإن من اتقى الله عزّ وقوى ، وشبع وروى ورفع عقله عن أهل الدنيا فبدنه مع أهل الدنيا ، وقلبه وعقله . معائذ الأخرة انتهى » .

فالمؤمن إذا أنس بألطاف الله ، وذاق طعم حلاوة ذكر الله . يلزمه الوحشة من مفارقة هذه الحالة ، فلا يرضى بمفارقتها فإذا منَ الله على عبده المؤمن بالتأييد ألزم قلبه هذه الحالة وأشغله بها ومكنه مع ذلك من الألتفات معها إلى ما دونها ثانياً وبالعرض وان كان أصل شغله بها وأصل التفاته إليها ، فلا يزال مستوحشاً من هذه الضميمة ، ويريد التفرغ لما هو المطلوب له بالأصالة ، والمقصود له اولا وبالذات ، إلا أن هذه الوحشة في قلبه لاتظهر

على جوارحه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن « حزنه في قلبه ، وبشره في وجهه » .

وربما يخبر بها إن اقتضى المقام إظهارها كما مر في حديث الباقر عليه السلام مع جابر ، فهذا معنى كون المؤمن مستوحشاً من أوثق إخوانه فما لم تتم له هذه الحالة : وهي كون الغالب عليك الأشتغال بالله ، والوحشة عن سواه ، ولو كان من أوثق إخوانك فلا تقدر على جعل معاشرتك للخلق ذريعة إلى القرب إلى الله لكون الغالب عليك الميل الطبيعي ، وحظ النفس من الأنس بالجنس البشري ، فتصير عبداً للنفس : ترضى لها وتغضب لها وتخرج عن شرف العبودية لله ، وما خلقت لذلك قال الله عز وجل « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » .

الباب الثامن

لا يكمل ايمان المؤمن حتى تكون فيه ثلاث خصال

خصلة من ربه وخصلة من نبيه وخصلة من امامه

إعلم أنه يراد منك أن تكون مقتدياً بسنة من ربك عز وجل ثم بسنة من نبيك صلى الله عليه وآله ، ثم بسنة من أمامك فعن الكافي عن الرضا عليه السلام : « أنه لا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال : خصلة من ربه ، وخصلة من نبيه صلى الله عليه وآله ، وخصلة من إمامه ، فأما السنة من ربك فكتمان سره ، قال الله عز وجل : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من إرتضى من رسول) وأما السنة من نبيه صلى الله عليه وآله فمداراة الناس فإن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وآله بمدارة الناس فقال : (خذ العفو وأمر بالعرف) وأما السنة من وليه فالصبر على البأساء والضراء » انتهى .

فمن يكون مراداً منه الأقتداء بصفة ربه التي يمتدح بها لاشك إنه معد لمقام عظيم وخطب جسيم وذلك أن الله يريد أن يمكنك داره التي إختارها وإجتباها لأوليائه ، وأصفيائه ، وأحبائه وهي الجنة ، فلابد أن يرشدك إلى الصفات التي تشبه بسكان تلك الدار حتى تحصل المناسبه بينك وبين الدار وبين سكانها أما الدار فهي طيبة طاهرة على أكمل ما يكون من الصفاء والنورانيه ، وأما أهلها فهم الأنبياء ، والمرسلون ، والشهداء ، والصديقون ، فتأبى حكمة الحكيم أن يرضى بكونك بتلك الدار غريباً أجنبياً عنها ، وعن أهلها ، بحيث يكون وضعك في ذلك المكان وضع الشيء في غير محله اللائق به ، وهو سبحانه برأفته

ورحمته لك لا يرضى لك إلا ذلك المكان الطيب الطاهر فاقتضى ذلك شدة العناية الألهيه بإرشادك إلى أعلى الصفات ، وأكملها ، وأبهاها ، وأسناها ، فلم يرض منك إلا بأن تكون مقتدياً في الصفات التي لشرفها ، ورفعتها ، وجلالتها قد نسبها إليه عز وجل وأثنى بها على نفسه ، فمن يكون متصفاً بالصفات المنسوبة إليه يليق به أن يسكن في الدار المنسوبة إليه ، ولما كان جيرانه في تلك الدار أولياء الله ، ألزمه بأن يتصف بصفاتهم ، فعندها يخاطب الباري سبحانه نفسه التي طابت وطهرت بالأتصاف بتلك الصفات الطيبه الطاهرة بقوله عز وجل : « ياأيتها النفس المطمئنه إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي » .

وتلك الصفات كثيره إلا أن الامام عليه السلام إختار منها ثلاثة للأهتمام بشأن هذه الثلاثه حتى وصف الأيمان معلقاً عليها .

فالأولى كونه كاتما لسره وذلك أن أغلب الخلق الغالب فيهم النقص وعدم الكمال ولكن صفات الكمال معلومة الحسن والجمال ، والشرفية ، بحيث أنهم يتمنونها لأنفسهم لكن لمخالفتها لهوى النفس الاماره ، وضعف همتهم لمجاهدتها يتقاعدون عنها فاذا رأوا من له همة الأتصاف بها يخافون أن يتصف بها فيفوقهم في ذلك ، والنفس لا ترضى بالأنحطاط عن الأقران ، بل تريد التفوق عليهم طبعاً ، فما دام يمكنهم يسعون كل السعي في منعه

من ذلك بالأفعال ، والأقوال ، وبكل حيلة ، والشخص الواحد لا قابلية له على مقاومة من لايحصى عددهم ، فلم يجعل الشارع للمؤمن طريق خلاص من ذلك إلا بكتم سره وهو عدم إظهار ما هو بانٍ عليه ، فحينئـــذ يكفى من شر الخلق ، ولا ينقطع عليه الطريق فلما علم أهل البيت عليهم السلام الأطباء الماهرون والحكماء المشفقون ، أن نفس هذا المؤمن الأمارة بالسوء ايضاً هي من جملة أعدائه ، وهي من جنس هؤلاء القطاع للطريق رغبوا المؤمن هذا الترغيب العظيم في كتم السر ، وبينوا له من صفات الرب التي مدح بها نفسه وأن وصف الايمان موقوف على ذلك ، والمقصود رفع منازعة النفس ، وميلها إلى الأظهار فيتوسل إلى ذلك تارة بأن فيه انتفاعاً لمن تظهره له ، وتارة بقصد ادخال السرور عليه وتارة بقصد الأستعانة بنظره لعل له نظراً في ذلك أو بدعائه أو لعله ينقله إلى من ينتفع به ، إلى غير ذلك من الرجحان للأظهار .

ودفع هـــذه التسويلات بأن ذلك لو كان راجحاً على الاطلاق لما اختار الله إخفاء سره عنهم ، وخصه بخزنة سره إذ الحكيم لا يترك الأرجح ولا يفعل إلا الاكمل ، فعلم من ذلك أن في الاظهار إفساداً لهم ومنافاة للحكمة : فأنت أيضاً كن مقتدياً بربك في مراعاة الحكمة ، واجتناب ما فيه الفساد فان مقصدها فاسد وإنما أبدته في صورة الصلاح وقد قال مولانا علي بن الحسين للزهري « وإياك أن تتكلم بما يسبق إلى القلوب إنكاره ،

وإن كان عندك اعتذاره ، فليس كل من أسمعته نكراً أمكنك أن توسعه عذراً » .

وفي المنسوب اليهم (عليهم السلام) شعراً :

إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن ... الى الحسين وأوصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وهو مشهور والأخبار الواردة في مدح كتم السر وذم الاذاعة في غاية الكثرة .

والمتحصل منها أن الانسان بعد أن يكون الغالب عليه حب الكتم وكراهة الافشاء ينظر بعين العقل حين وجد مقاماً للاظهار أظهر بمقدار الضرورة متحرياً في ذلك لامتثال أمرهم (عليهم السلام) بقولهم : « لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » .

واعلم أن صفة كتم السر تشتمل على أمرين أحدهما كون المؤمن ذا سر ، والثانية أن تكون له ملكة الأخفاء والكتم بحيث لا تغلبه نفسه على الافشاء والاذاعة ، وهذا الكلام كله في الثاني ، واما الاول فيكفي فيه ما قاله الصادق (عليه السلام) يوماً للمفضل بن صالح : « يا مفضل إن لله عباداً عاملوه بخالص من سره ، فعاملهم بخالص من بره ، فهم الذين تمر

صحائفهم يوم القيامة فرغاً فاذا وقفوا بين يديه ملأها من سر ما أسروا إليه . فقال المفضل : يا مولاي ولم ذلك ؟ فقال أجلهم أن تطلع الحفظة على ما بينة وبينهم » . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن فهد (في عدة الداعي) بعد ذكره لهذا الحديث الشريف لاتغفل عن هذه المقامات الشريفة التي هي أنفس من الجنة وانا اقول بهذا المعنى بقول القائل وقد أجاد إذا أراد هذا المراد.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة باسرار تناجي تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأفئدة تطير بلا جناح إلى ملكوت رب العالمينا

فهذا ما يتعلق بالسنة الأولى والثانيه هي مداراة الناس : وهي السنة عن النبي صلى الله علية وآله وقد قدمنا لك عن علي عليه السلام « أن أحب الخلق الى الله من تأسى بنبيه ، كما وحكمتها كحكمة كتمان السر ، بل كتمان السر على مافسرناه نوع من أنواع مداراة الناس ، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال « قال رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني ربي بالمداراة كما أمرني بأداء الفرائض » وعنه عن جده أيضاً قال : « مداراة الناس نصف الأيمان ، والرفق بهم نصف العيش ، ثم قال الصادق علية السلام : خالطوا الأبرار سراً ، وخالطوا الفجار جهراً ، ولم تميلوا عليهم فيظلموكم فأنه سياتي عليكم زمان لاينجو من أهل ذوي الدين إلا من ظنوا أنه أبله ، وصبر نفسه على أن

يقال إنه أبله لا عقل له » وعنه أيضاً عن جده صلى الله عليه وآله « ثلاثة من لم تكن فيه لم يتم له عمل ورع يحجزه عن معاصي الله وخلق يداري به النـاس ، وحلم يرد به جهل الجـاهل » وفي الحديث عن الصاق « من كف يده عن الناس فإنما يكف عنهم يداً واحدة . ويكفون عنه أيد كثيرة » .

فياأخي ما يصدر من بعض من يدعي الصلاح والتقوى من أني لا أيالي بالنـاس ، ولست محتاجاً ومن يكون النـاس ؟ إلى غير ذلك من الكلمات التي تصدر منهم في مقـام عدم المـداراة كلهمن اتباع هوى النفس والجهل بطريقة أهل البيت عليهم السلام

وكثير من الجهال يشتبه عليه مقام المداراة للناس في مقام المداهنة فيتخيل أن المداراة للناس المامور بها المداهنة . والفرق واضح فـان المداهنة المذمومة هي الموافقة على تحسين القبيح ، أو ترك إنكاره رغبة وطمعاً فيما عندهم : ليتوسل إلى منافعهم الدنيوية أو يجلب قلوبهم إليـه من دون ملاحظة دفع مفسدة .

ومما يدل على حسن الرفق والمداراة وأنه يجر الى كل خير الرواية المشهورة للشامي الذي تكلم بما لا يليق مع علي بن الحسين عليـه السلام لمـا حملوه إلى يزيد لعنه الله في الشام فقام الشامي الحمد الله الذي قتلـكم وأكذب أحدوثتكم ، وأراح الناس منكم فلما فرغ من كلامه قال له الامام عليه السلام : يـا شيخ أتقرأ القرآن ؟ قال نعم . قال هل قرأت قوله (قل لا أسالـكم عليه

أجراً إلا المودة في القربى) قال : نعم . ثم قال : هل قرأت قوله « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ثم قال : يا شيخ هل قرأت قوله تعالى : « وآت ذا القربي حقه » . فقال نعم قال الامام عليه السلام نحن القربى ، ونحن أهل بيت نبيك ، قال : فرفع الشيخ كفه إلى السماء وبكى وتبرأ من قاتل الحسين وبكى وتاب .

فانظر كيف جره الرفق إلى الخير .

والمداراة ترك الأنكار دفعاً للمفسدة أو لأجل تخفيفها، أو تحرزاً عن تهييجها ، وأين هذا من ذلك .

والمداراة قد تكون لدفع الشر ممن تداريه ، وقد تكون لأستجلابه الى الخير ، وكلها في مقام لا محل للأنكار ، وأما للخوف ، أو لعدم التاثير ، فحينئذ الرفق ، والبشاشة وتحمل الاذى ، والدفع بالتي هي أحسن هي المداراة . قال فيها (إدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ومنها قوله تعالى (قولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) ومنها في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : إن النبي صلى الله عليه وآله بينما هو ذات يوم عند عائشه إذ إستاذن عليه رجل فقال النبي صلى الله عليه وآله فبئس أخو العشيرة . فقامت عائشة فدخلت البيت وأذن رسول الله للرجل فلما دخل أقبل عليه رسول الله

صلى الله عليه وآله بوجهه الشريف وبشره وأقبل يحدثه حتى إذا فرغ وخرج من عنده قالت عائشه : يا رسول الله بين ما أنت تذكر هذا الرجل فيما تذكره به إذ أقبلت عليه بوجهك وبشرك ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : إن من شر عباد الله من تكره مجالسته لفحشه » انتهى فهذا كله من المداراة التي هي نوع من التقية وقد ورد في مدح التقية ما لا يحصى حتى فسر قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » بان المعنى أعد لكم في التقية وحتى قالوا إن تسعة أعشار الدين للتقية « ويكفيك ما في الكافي عن حماد بن واقد الفحام قال : « إستقبلت أبا عبد الله عليه السلام في طريق فاعرضت عنه بوجهي ثم مضيت فدخلت عليه بعد ذلك فقلت : جعلت فداك أني لألقاك فاصرف وجهي كراهة أن أشق عليك فقال لي : رحمك الله ، لكن رجلا لقيني في موضع كذا فقال : عليك السلام يا أبا عبد الله ماأحسن ولا أجمل » إنتهى .

فانظر لمن لاحظ كيف إستحق دعاء الامام له بالرحمة بترك السلام عليه ، وانظر إلى من لا يلاحظ المقام ، وترك مجاراة الخلق كيف شكى منه الامام وقال : انه ما أحسن ولاأجمل فمن هذا الحديث وأمثاله تعرف إن إكرام المؤمن بترك إكرامه حيث يكون إكرامه باعثاً إلى الحسد له واثارة الفتن ، وقد يكون إكرامه بالقدح فيه كما صدر من بعض الائمة في حق بعض

الخواص وهو من باب خرق السفينة لتسلم .

الثالثة : الصبر .

في البأساء والضراء ولا ريب أن الدنيا سجن المؤمن فاي سجن جاء منه خير ولقد قال الصادق لرجل إشتكى عنده الحاجة فقال له : إصبر سيجعل الله لك فرجاً،ثم سكت ساعة،ثم إلتفت اليه فقال : إخبرني عن سجن الكوفه كيف هو ؟ فقال ضيق منتن ، وأهله بأسوأ حال ، قال : فإنما أنت في السجن تريد أن تكون في السعه ، أما علمت أن الدنيا سجن المؤمن » إنتهى .

فالمؤمن إما أن يكون من أهلى الشوق الى الآخره فيكون أصل بقائه في الدنيا سجناً له ، فضلا عما يعرض له من البلاء . وأما أن يكون ممن يخشى عليه الميل إلى هذه الدنيا ، والرغبة لما فيها فتأتي رأفة الحكيم فتزعجه منها بأنواع الأبتلاء حتى يتنفر منها ولا يركن اليها ، فانها دار الظالمين ، وأما أن يكون ضعيف العمل ، قليل الطاعات ، فتأتي رأفة الحكيم الرحيم أن (١) يحرمه ثواب الابتلاء بالمصائب ، وقد قال الصادق (ع) : « لو يعلم ماله من الأجر في المصائب لتمنى أنه قرض بالمقاريض » وقال الصادق عليه السلام : « من ابتلى ببلاء من المؤمنين فصبر عليه كان له أجر ألف شهيد » وقال الصادق عليه السلام : « أنه ليكون للعبد منزلة عند الله عز وجل فما ينالها إلا بأحدى

(١) لعل الأصل أن لا يحرمه فحذفت (لا) سهوا .

خصلتين : أما بذهاب ماله ، أو ببلية في جسده » إنتهى .

فالابتلاء أما أن يكون للمؤمن مثوبة ، ورفع درجة . أو عقوبة ، وكفارة وكلاهما حسن محبوب عند العاقل . أما الثواب فواضح وأما العقاب فلما إشتملت عليه أخبار أهل البيت عليهم السلام من أن الله أكرم من أن يجمع على عبده المؤمن عقوبتين ، فكل شيء عاقبه عليه في الدنيا فلا يعاقبه عليه في الاخرة ، فإذا كان لابد للمؤمن من الأبتلاء فلابد له من الصبر ، وقد خلق الله الله الصبر قبل أن يخلق البلاء ، ولولا ذلك لتفطر قلب المؤمن كما تتفطر البيضة على الصفا .

وفي الكافي : عن علي عليه السلام «قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الصبر ثلاثه : صبر عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبه حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلثمائة درجه ، ما بين الدرجه الى الدرجة كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له سبحانه ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجه كما بين تخوم الأرض إلى العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجه ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش » وفي الكافي أيضاً : عن الصادق عليه السلام « إنا صبر وشيعتنا أصبر منا قلت جعلت فداك كيف صار شيعتكم أصبر منكم ؟ قال له : لأنا صبرنا على ما نعلم ، وهم

صبروا على ما لا يعملون » إنتهى أنظر إلى رأفتهم كيف شكر لشيعتهم ما يقع منهم من الصبر القليل على المصائب الجزئية بالنسبة إلى مصائبهم يريدون أن يلحقوا بهم شيعتهم كي لاينقطعوا عنهم فيهلكوا ويضمحلوا فإنهم علموا أن لا نجاة لشيعتهم إلا بأن يحسبوهم منهم ، ويجعلوا أنفسهم مع شيعتهم صفة واحدة فحينئذ لا يمكن رد الجميع ، فلابد من قبول الجميع ، أما إذا كان لكل واحد حكمه هلكت شيعتهم لا محالة ، فصار أقصى همتهم ، ونهاية مرادهم من شيعتهم أن يتشبهوا بهم تشبهاً صورياً كما قال أمير المؤمنين : من « أنه من تشبه بقوم أوشك أن يكون منهم » .

ثم يتمون ذلك بالشفاعة ، وللدعاء ، ففي دعاء الصاحب عجل الله فرجه وجعلني فداه الذي سمعت السيد ابن طاووس يدعو به لشيعتهم في للسرداب المقدس ما معناه ، وقد غاب عني بعض ألفاظه : اللهم إن شيعتنا منا ، خلقوا من فاضل طينتنا ، وعجنوا بنور ولايتنا ، فولنا أمورهم ، واغفر لهم ما فعلوه من ذنوبهم إتكالا على محبتنا ، وإن خفت موازينهم فثقلها بفاضل حسناتنا .

أنظر اليه عجل الله فرجه وجعلني فداه كيف يبالغ بالأهتمام بخلط شيعتهم بهم ، حتى لا يختزلوا دونهم . فتارة أنهم في أصل الخلقة منهم ، وتارة بأن الذنوب الصادرة منهم منشؤها

الأتكال على محبتهم ، وتارة التضرع الى ربه في تكميل نقصهم بفاضل حسنات ساداتهم ومواليهم .

فيا أخي هم يعلمون ما لا نعلم ، وهم الذين قالوا : « لا تنظروا إلى المعصية ، ولكن أنظروا إلى من عصيتم » . فلعلمهم بخطر معاصينا ، وشدة خوفهم علينا من الهلكة أرشدونا إلى أن طريق النجاة المرجوة فيه للسلامة إنما هو : بذل الجد والجهد في التشبه بهم مهما أمكن ، بحيث يجعل الأنسان همه في أن لا يفارقهم طرفة عين لما ذكره الرضا عليهم السلام : بأن يكون إكتفاؤه في المؤمن سنة من وليه مراده بها أن هذه السنة تستجمع السنن كلها ، بحيث أن للصبر بمراتبه الثلاث التي هي الصبر في المصيبة ، وعلى الطاعة ، وعلى المعصية ، لا يبقي بقية من السنن إلا وقد تضمنها .

وقد ورد التصريح في الأخبار الواردة في المتعه : بأني أكره للرجل منكم أن يترك خلة قد فعلها رسول الله صلى الله عليه وآله . ففي الفقيه عن بكر بن محمد عن أبي عبد الله قال « سألته عن المتعة . فقال : إني لأكره للرجل المسلم أن يخرج من الدنيا وقد بقيت عليه خلة من خلال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقضيها » . وروي : أن المؤمن لا يكمل حتى يتمتع . وعن الصادق عليه السلام مرسلا : « إني لأكره للرجل أن يموت وقد بقيت علية خلة من خلال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقضها انتهى

وهو يدل على أنهم لا يؤثرون عن شيعتهم الأخلال بسنة من سنتهم ، وأن من فعل ذلك فقد تعرض لدخول المكروه عليهم ، أعاذنا الله وإخواننا من ذلك ووفقنا لأدخال السرور عليهم .

ولا بأس الأشارة إلى نبذة من سنتهم للتي إشتد بها اعتناؤهم بحيث ظهر منهم الألتزام والأهتمام بها على حد الأهتمام بالواجب عسى أن يوفقنا الله للتأسي بهم في الالتزام بها ، إلا مع المانع القوي ، والمعارض الأهم .

فمنها الوفاء بالعهد

فيفهم من طريقتهم عليهم السلام : أن المؤمن ينبغي أن لا يلتزم بالوعد ، حذراً من عروض العوارض ، فيقع في إخلاف الوعد ، وهو محذور عظيم في نظرهم عليهم السلام .

فما دام لا يمكنه التحكم بالعوارض لا يعد فإذا وعد يلتزم بوعده ، ولا يتخلف عنه ، فمن تخلف عن وعده فهو مباين لطريقة أهل البيت عليهم السلام ، ويخرج بذلك عن شعارهم ، ويدخل في شعار غيرهم . (العياذ بالله) .

ويرشدك إلى تصديق هذا المعنى إيصاء النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام : بقضاء ديونه ، وإنجاز عداته فلو لم يكن

عنده معاملا معاملة الدين ، وملتزماً به التزام مشغول الذمة به لكان من أعظم الأعذار فيه عروض الموت ، وفوات التمكن فلم يحتج الى الزام الوصي به على حد الزامه بالديون . ولقد أجاد من قال شعراً :

إن الفتى من بدا منه الجميل بلا وعد ، ومن أنجز الميعاد نصف فتى
ومن تخلى عن الأمرين فامرأة ونصف إمرأة من خلقه ثبتا

واعلم أن مرادنا من الألتزام بوفاء الوعد الذي هو طريقة أهل البيت عليهم السلام إنما هو ما كان من عروض الموانع ، والأعذار على وجه يبقى معه إمكان الوفاء .

مع عدم عروض الموانع فذلك لا كلام فيه ، لأن الأخلال بالوعد لا لداع نقص ، وقبح ، لو صدر من أقل الناس ، فلا يليق أن يعد التحرز منه في خواص أهل البيت عليهم السلام التي تريد الحث على الأقتداء بها :

ومنها الأحسان التبرعي

فوق الواجب وفوق ما حصل الوعد به إذ هو عندهم كالواجب فعن النبي صلى الله عليه وآله إنه كان حسن الوفاء بمعنى أن عادته الشريفة مستمرة على أنه إذا إستدان يعطي قدراً

زائداً فوق الدين ، بحيث أنه قد عرف بهذه العادة .

وأما أهل بيته فسجيتهم الكرم ، وعادتهم الأحسان ، كما في الزيارة الجامعة ، وهم الممثلون لنص (إن الله يأمر بالعدل والأحسان) وعن علي عليه السلام : انه أعتق ألف مملوك من كد يمينه ، وكان لا يكتفي بعتقهم ، بل يبذل لهم بعد العتق وصلة إلى التعيش والأكتساب . وكذلك لما وعد الأعرابي بمكة بأربعة آلاف درهم : باع له الحديقة التي غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعطاه الوعد ، وأفضل عليه .

والأحسان التبرعي فوق الدين ، أو فوق الوعد له موقع في النفوس ولو كان بشيء جزئي . ويفهم من طريقة أهل البيت عليهم السلام الألتزام به .

ومنه الأيثار على النفس ولو مع الخصاصة

قال الله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه » .

واعلم أن المؤمن ما لم يلتزم بالأيثار على النفس ، ويجعل همه ذلك فلابد أن يغلبه حب النفس ، وهواها على الحيف ، وترك الأنصاف ، ولو في بعض الاحيان ، فلا يكون مؤمناً ، لأن المؤمن من أمن الناس شره ، بخلاف من الزم نفسه بالأيثار

فإن غاية ما تنازعه عليه نفسه ترك الأيثار ، فإن فاته الأيثـــار فلا يفونه أصـــل أداء الحق ، فعلى كل تقدير يكون الظـــلم مأموناً منه .

وهذا قليل من كثير والأقتصار على هذا المقدار أولى والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب التاسع

في الرضا بالقضاء

إعلم أنا قدمنا مدار ترقي المؤمن على تأسيه بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ، وقد روي في الكافي عن ابن يعفور عن الصادق عليه السلام قال : « لم يكن رسول الله يقول لشيء قد مضى لو كان غيره » إنتهى .

أنظر إلى تحرجه الى تمني خلاف الواقع ، حذراً من الوقوع فيما ينافي الرضا .

فالمطلوب من المؤمن توطين نفســه على الرضا بالواقع كيف كان .

واعلم أن منشأعدم الرضا ، وتمني خلاف الواقع إنمـا هو الجهل بحكم الاشياء ، ومصالحها ، فلو ظهرت له حكمه الاشياء لما تمنى الأنسان غير الواقع فإذاعود المؤمن نفسه على التأمل في حكم الاشياء ومصالحها يظهر له كل كثير منها ، ويسهل عليه الرضا ، ومالم يظهر له وجهه يمكن أن يجعله من باب الحاق المجهول بالأعم الأغلب .

ولكل شيء مصالح عديده ، وحــكم كثيرة ، فمهما توجه الأنسان إلى ربه ، وطلب منه إظهار بعض وجوه الشيء أظهر له على حسب إستعداده وقابليته ، وطلبته وارادته .

وهذا أقرب الطرق في تحصيل الرضا بالقضاء .

وأما توطين النفس على الرضا بالشيء ولو مع اخفاء حكمته والجهل بها ، ففيه صعوبة بالنسبه الى ما ذكرناه . وقد نقل أن

مولانا الحسن بن علي عليه السلام علم بعض الشيعة في عالم الطيف أنه ينال ما يريده من نهاية القرب منهم ، والتمكن من رؤيتهم مهما أراد بالأتصاف بما في هذه الأبيات وهي قوله .

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضاء
فلربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط لك في عواقبه رضا
أالله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضا
أالله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

فلعمري أن هذه الأبيات فيها الشفاء من كل داء لمن عمل بها . وعمدتها تحصيل درجة الرضا بالقضاء ، « وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » .

وقد اشتملت هذه الأبيات الشريفة الصادرة من ينبوع الحكمة ، ومعدن العصمة على طرف في الأرشاد الى تحصيل هذه الرتبة السنيه .

فمنها كون الانسان معرضاً عن همومه وهو من أعظم المقدمات لينال هذه الدرجة فان واردة الهموم أعظم شيء افساداً للقلب والقلب – وقت اشتغاله بها – معرض عن ربه مشغول عن التوجه اليه سبحانه بما فيه من الهموم ، والأحزان فتظلم أقطار القلب وجوانبه بأعراضه عن باريه ، وتنهد بنية الجسد ، وربما يؤثر

مرضاً شديداً ، مؤدياً الى الهلاك والعطب . ثم بعد اليأس والعجز عن التدبير ، وانقطاع الحيل والآمال ترى الأنسان يقول (على الله) كأن الله وكله الى تدابيره التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

وكل هذا ناشيء من الجهل بمراد الله ، وبطريقه أهل البيت عليهم السلام ، ومن الأنس بما اعتادته النفس الاماره .

والذي أرشد اليه أهل البيت عليهم السلام : أن الواجب على المؤمن أن يعود نفسه على الأعراض عن الهموم ، حتى يتفرغ قلبة للتوجه الى باريه ، قال الله عز وجل « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فالقلب اذا توجه الى ذكر الله وعطفه ولطفه ورأفته ورحمته فرت عنه الهموم والأحزان والغموم ، فإنما تنشأ من الألتفات الى جانب النفس واجراء الأمر على ما يقتضيه حالها من العجز ، والضيق ، والتحير بكل شيء والحرص على ما في يدها ، وأما مع الألتفات الى حفرته الأحدية التي كل بعيد عندها قريب ، وكل صعب عندها سهل ، ونسية الأشياء اليها على سواء ، ومقتضاها الرأفة ، والرحمة فاين الهم والغم ؟ ولماذا يكون الأسف والحزن ؟ فإن كان على ما فات لا يعود . فهو يخلفه بأضعاف مضاعفة ، فربما كان قوته تجارة ، لاخسارة ، حيث فاتك واحد وعوضت عنه بألف أو بالآلاف أو بما لا عداد له ولا نهاية .

فياأخي لا راحة للقلب حقيقة الا عنـد ذكر الله ، ولا اضطراب له الا عند التفات النفس الى عالم الضيق ، والحرص والبخل ، واليأس من الروح والراحة .

فالأعراض عن الهموم يكون باعثاً على التوجه الى الحيّ القيوم ، أو يكون منبعثاً عن التذكر الفارج للهموم ، وكاشف الغموم .

فأقل ما يتوسل به الى تحصيل الرضا بالقضاء والقـاء (١) الهموم والغموم عن القلب وتفريغ البال للتوجه الى حضرة ذي الجلال . فعند ذلك نشاهد الطافه الخفيه ، والجليه ، وضمانـه لعبده الكفاية في الأمور الكلية ، والجزئيه وهو قوله عز وجل: (أليس الله بكافٍ عبده) فلا تجد مناصاً عن ايكال الأمور الى قضائه ، فإن الله عز وجل وان أمر بالأسباب ، لكنـه لم يأمر مطلقاً ، بـل بشرط عدم الأعتماد عليها ، وترك الأتكال عليها ، فيكون الأتيان بالأسباب حينئذ امتثالا لأمره ، فإن أثرت فبإذنه عز وجل ، وان لم تؤثر فالعبد قد امتثـل ، وفرغ عن عهدة التكليف ، وعلى الحكيم أن يفعل ما تقتضيه حكمتـه ، وعلى العبد أن يكل الأمر الى قضائه ، فيصبر له أو يسلّم ، أو يرضى .

فالقضاء ان كان بالمحبوب فهو المحبوب ، وان كان بمـا

---

(١) لعل الأصل : القاء بدون الواو ، أو هو القاء ... الخ .

تكره النفس فالواجب على العبد أن يسلي نفسه بأنه ربما اتسع المضيق ، ورب للتكفير في هذا المقام بقرينة المقام ، وربما ضاق الفضاء وهو أيضاً كثير . فالحكيم لابد أن يقلب عل عبده الأحوال ، لئلا يطمئن الى حال ، ومراده أن يكون منقطعاً اليه في كل الأحوال ، حيث أنه في حال اليسر لا يأمن تبديله في كل دقيقه ، فلابد في كل دقيقة من الأنقطاع اليه ، في تلك الدقيقة وهكذا ....

وكذلك في حال العسر الأنقطاع يكون العبد اليه أحوج ، لعجزه ، وضعفه عن تحمل البلاء فإن كان لابد من تقليب الأحوال على هذا العبد فلابد من تسلية النفس ، بأن هذه الأحوال لا تدوم ، وكثير فيها التقلب والتبديل فينبغي أن لا يعتد بفرحها ولا يؤثر من فرحها (١) وذلك قوله عز وجل : لكي « لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم » .

ويضاف الى هذا في التسلية بأن أكثر هذه الأبتلاءات اختبارات فإذا انكشف حال العبد اما بالصبر ، أو بالعجز ، أو بالضجر ، وعرف من نفسه ذلك رفع الله عنه ذلك ، وجعل عاقبة أمره يسراً . وهو قوله :

ولرب أمر مسخط لك في عواقبه رضا

---

(١) العبارة هكذا في النسخ التي قابلناها ولعل الأصل : ولا يأسى على ما فاته منها .

والأختبار غالباً مجرد حصول وقوع الأبتلاء ، من دون حاجة الى طول المدة ، فإذا كانت المدة قصيرة ، والعاقبة لما فيه رضاه هان الخطب .

وأما قوله :

ألله يفعل ما يشاء   فلا تكن متعرضاً

ففيه تحذير من الأعتراض على قضاء الله وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام : « من أصبح على الدنيا حزيناً ، فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً » . كذا في نهج البلاغة ، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : « أن الحسن بن علي عليه السلام لقي عبد الله بن جعفر فقال : ياعبد الله كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يسخط قسمه ويحقر منزلته ، والحاكم عليه الله ؟ وأنا الضامن لمن لا يهجس في قلبه الا الرضا أن يدعو الله فيستجيب له » .

وأما قوله :

ألله عودك الجميل   فقس على ما قد مضى

ففيه كمال التأمل بتذكر عواعد الله الجميلة ، وألطافه الجليلة التي بملاحظتها يحصل للعبد علم عادي بأن الله لا يخليه اذا انقطع اليه فيما دهاه من الفوادح ، من عطفـــة من عطفاته : يحي بها الموات ، ويرد بها ما قد فات ، وقد اشتمل على هـــذا المعنى والمعنى الذي قبله شعر منسوب في مصباح الشريعة الى مولانا علي عليه السلام :

رضيت بمـــا قسم الله لي وفوضت أمري الى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كـــذلك يحسن فيما بقي

والأخبار الواردة في الحث على الرضا أكثر من أن تحصى:

فمنها الحديث القدسي المشهور أن الله تعالى يقول : « لا اله الا أنا ، من لم يصبر على بلائي ،ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي » وكفى بهذا التهديد الألهي واعظاً لمن عقل ، ومنبهاً لمن جهل . وعن الحسين بن خالد ، عن الرضا ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله عز وجـل : من لم يرض بقضائي ، ولم يؤمن بقدري فليلتمس الهاً سواي :

قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله : في كل قضاءالله خيرة للمؤمن » انتهى » .

واعلم ياأخي (يمحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنـــده أم الكتاب) .

والقضاء أول ما يرد على العبـــد يرد بطور الأجمال يعني بحيث يمكن أن يكون نعمة وأن يكون نقمه ، وان كان ظاهره أنه من نوع الأبتلاء ، والعقوبة .

فإذا أحسن الظن العبد بربه وتفاءل بالخير ووطن نفســه على الرضا بالقضاء قلب الله ما ظاهره : أنه نقمه ، وبدله نعمة وأجرى الأمر على ذلك . وبالعكس العكس :

فالعبد لا زال بسوء ظنه وقلة رضائه بالقضاء وشدة انزعاجه من واروات الأبتلاء يستجلب لنفسه بلاء فوق بلاء، ويقلب ما عليه نعمة الى الوبال، والنقمة، وفي الجواهر السنية عن الرضا عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن آبائه قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أوحى الله الى نبي من أنبيائه: أن أخبر فلاناً الملك أني متوفيه الى كذا وكذا فأتاه ذلك النبي فأخبره، فدعا الله الملك وهو على سريره حتى سقط من السرير: فقال يا رب: أجلني حتى يشب طفلي وأقضي أمري فأوحى الله الى ذلك النبي: أن اءت ذلك الملك فاعلمه أني قد أنيت في أجله وزدت في عمره خمس عشرة سنة.

فقال ذلك النبي: يا رب أنت تعلم أني لم أكذب قط، فأوحى الله عز وجل اليه انما أنت مأمور، فأبلغه ذلك، والله لا يسأل عما يفعل » انتهى الحديث الشريف.

فلا شك أن الانقطاع الى الله عز وجل، والالتجاء اليه، وحسن الظن به، ومبادرة الأمر بالصدقة، والدعاء، وصلة الرحم، لها تسبب في تبديل واردات القضاء.

« اللهم ان كنت عندك شقياً، أو محروماً مقتراً على رزقي فاكتبني عندك سعيداً، مرحوماً، داراً علي رزقي، فإنك قلت في كتابك: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

فيا أخي كيف لا يرضى العبد بقضاء ربه ؟ وقد روى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله ان الله يقول : « يا بني آدم كلكم ضال الا من هديت ، وكلكم عائل الا من أغنيت ، وكلكم هالك الا من أنجيت ، فاسألوني أهدكم ، وأكفيكم سبيل رشدكم .

ان من عبادي المؤمنين من لا يصلحه الا الفاقة . ولو أغنيته لأفسده ذلك .

وان من عبادي من لا يصلحه الا الصحة ولو أمرضته لأفسده ذلك .

وان من عبادي لمن يجتهد في عبادتي ، وقيام الليل فألقي عليه النعاس نظراً مني له ، فيرقد حتى يصبح ، ويقوم وهو ماقت لنفسه ، زار عليها ، ولو خليت بينه وبين ما يريد لدخله العجب بعمله ، ثم كان هلاكه في عجبه ، ورضاه عن نفسه ، فيظن أنه قد فاق العابدين ، وجاز باجتهاده حد المقصرين ، فيتباعد مني بذلك ، وهو يظن أنه يتقرب الي به . ألا فلا يتكل العاملون على أعمالهم وان حسنت ، ولا ييأس المذنبون من مغفرتي لذنوبهم ، وان كثرت ، ولكن برحمتي فليثقوا ، ولفضلي فليرجوا ، والى حسن نظري فليطمئنوا ، وذلك أني أدبر عبادي بما يصلحهم ، وأنا بهم لطيف خبير انتهى الحديث الشريف .

دقائق الملاحظات

مما نبه عليه أهل البيت شيعتهم

في باب الرضا بالقضاء

وأعلم أن لأهل البيت تنبيهات على مقامات عالية في الرضا بالقضاء ، فهنيئاً لمن تنبه لها ، وعثر عليها ، فإنها من كنوزهم عليهم السلام التي أودعوها صفحات الكتب ، عسى أن تصل الى أهلها مع علمهم بقلتهم ، وقليل ما هم ، وقليل من عبادي الشكور ، فرجونا أن يشرف الله كتابنا هذا بجمع نبذ منها مالم يجتمع في غيره فإن عمدة قصدنا فيه الأشاره الى ما لم يسطر ، أو الأنتقاد لما قد سطر ، ما لم يصدر من عين صافيه .

فمنها أنهم ألزموا أنفسهم بعدم الانتصار لأنفسهم في مقامات الابتلاء بل يتلقون البلاء بالتسليم ، والصبر ، حتى يجيئهم الأمر الخاص بتدارك وارد البلاء ، ودفعه بالدعاء ، ولذلك كان يظهر عليهم في بعض الأحوال حال الخضوع لله والانكسار بين يديه ، لفقد أدنى الأشياء من الغذاء ، والماء مع تمكينهم من كل شيء بالدعاء ، فما ذلك الا لما لزموا به أنفسهم وقيدوها بعدم الانتصار لأنفسهم بالدعاء ، وترجيح جانب الصبر عليه ، مع تخييرهم بين الاصطبار ، والانتصار ، الا أن أفضل الفردين عندهم الاصطبار ، وهم لا يتركون الأولى أبداً حتى يجيئهم الأمر الخاص بترجيح الفرد الآخر .

يفصح عن هذا المعنى قضية علي بن الحسين عليه السلام لما شكى اليه بعض شيعته الحاجة ، فبكى الامام عليه السلام رحمة له ، فقال له : يا سيدي وهل تعد البكاء للمحن الكبار ؟

فقال له : وأي محنة أعظم من أن يرى المؤمن بأخيه فاقة ، ولا يقدر أن يسدها . فخرج ذلك الشيعي من عند الامام متحيراً ، فبلغه قول النصاب : ما أعجب أمر هؤلاء ساعة يدعون أن السموات والأرض تطيعهم ، وأن كل شيء بأيديهم ، وساعة يعجزون عن إعانة بعض شيعتهم بشيء يسير ، فرجع ذلك الفقير إلى الأمام عليه السلام . قائلا : مصيبتي بكلام هؤلاء النصاب أعظم من مصيبتي بفقري ، وشدة حاجتي . فقال الأمام عليه السلام ويلهم أما علموا : أن لله أولياء لا يقترحون على الله . ياعبدالله قد أذن الله بفرجك ، ثم أعطاه فطوره ، وسحوره ، ففرج الله عنه بذلك فرجاً عاجلا ، ورزقه درة عظيمة في جوف سمكة ، فباعها بمال غزير ، ثم رد القرصين إلى الامام عليه السلام .

والحكاية مشهوره ، ومحل الشاهد منها قوله « أما علموا أن لله أولياء لا يقترحون » .

ونظيرها قضية سلمان الفارسي (ره) لما إبتلى باليهود ، وهم يضربونه ، ويقولون : « لم لا تدعو الله بمحمد وعلي أن يعجل بهلاكنا ، ويخلصك من أيدينا ، فيقول لهم : « الصبر أفضل وأنا أدعو الله أن يصبرني ولعل الله أن يخرج من أصلابكم مؤمناً ، فلو دعوت الله عليكم بالهلاك كنت قد قطعت مؤمناً من الأيمان » فلم يدع عليهم حتى إنكشف الحجاب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأمره بالدعاء عليهم ، وأخبره

بأنه ليس في أصلابهم مؤمن » . والقضيـــة في تفسير الأمام العسكري عليه السلام عند قوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) من أحبها فليراجعها فهي من أعاجيب الدهر ، ولا عجب من تشبه بساداته حتى أخبروا عنه أنه منهم أهل البيت عليهم السلام.

ومن هذا الباب قضية المعراج حيث كلف للنبي صلى الله عليه وآله بخمسين صلاة فلم يراجع ربـــه ، حتى سأله موسى عليه السلام المراجعة ، فلم يزل يراجع ، ويخفف عنه وعنهم ، حتى إنتهت إلى خمس صلوات فسأله موسى المراجعة ، فقال : قد إستحييت من كثرة المراجعه . فأوحى الله إليه : « أنك لما صبرت على الخمسة فهي لكم عندي بخمسين » . فكان التماس موسى بمنزلة الأمر الخاص بطلب التخفيف ، وقبـــل ذلك لم يستبح السؤال ، وقد إشتملت الرواية على ذلك صريحاً لما سئل الامام عليه السلام كيف لم يسأل النبي صلى الله عليـــه وآله التخفيف من الله قبل ذلك .

والحاصل أن كل الأنبياء السابقين ربما يصدر منهم إستعفاء من بعض الابتلاءات أو التكاليف الشاقة المتعلقة بأممهم .

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فلم يتفق لهم الأستعفاء في مقـــام من المقامات ، لكن لتلقيهم الوارد بالقبول يجيئهم العفو تفضلا ببركة التوطين على الألتزام بما فيه المشقـــة ، والامتحان ، فصارت شريعتهم بسبب ذلك

أخف الشرائع ، وأسهلها ، حتى قال النبي صلى الله عليه وآله « جئتكم بالشريعة السمحة السهلة » ولقد أجاد عقيل بن أبي طالب بتسليته لأبي ذر . حين طردوه إلى الربذة ، فخرج معه علي ، والحسنان ، وعقيل ، مشيعين له فقال له عقيل : في جملة كلام له للتسلية : « إن استعفاءك البلاء من الجزع ، وإن استبطاءك العافية من اليأس ، فدع الجزع ، واليأس ، وقل : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وقد تقدم لك أن هذه المقامات الدقيقة مأنوسة عندخواص أهل للبيت عليهم السلام الذين حظوا بطول الصحبة ، حتى إقتبسوا من مشكاتهم هذه الأنوار .

ولا يثبطنك الشيطان عن أخذ حظك من هذه المقامات بما ألقاه على ألسنة أهل عصرنا هداهم الله . من أن هذه المعاني مقصورة على أهل البيت عليهم السلام ، وهى من خواصهم ، فليس الخطاب بها شاملا لأمثالنا .

ولعمري لقد تاهوا تيهاً شديداً وضلوا ضلالا بعيداً . ما هذه المقامات التي تبلغها عقولنا ، وأحلامنا ، إلا لعبيد أهل البيت عليهم السلام ، بل لأقل عبيدهم .

فأما مقاماتهم الخاصة بهم فأين الثريا من يد المتناول ؟ والأحلام والأفهام عنها بمراحل ولكن لقول الله :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

وقد صار أهل للبيت ينسبون كـلام الأخلاق ، ومعاني الآداب لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ويحكونها عنه ، حثاً عليها وترغيباً لهـا إلا (١) أن كل ما ينسب اليـه يكون من خصوصياته ، فيبطل الاقتداء . سبحانك هذا بهتان عظيم .

ونقل أن أبا ذر الغفاري كان يحب المرض ، ويختاره على العافية ، لما فيه من الأجر والثواب .

وعن بعض الأئمة عليهم السلام حكي ذلك ثم قال بعده: « لكنا قوم ، العافية أحب الينـا من المرض ، والمرض وقت المرض أحب الينا من العافية » . وفي هـذا الكلام الصادر من ينبوع الحكمة والعصمة تنبيه على تفضيل درجة الرضا بالقضاء، سواء كان بالمحبوب ، أو بـالمـكروه و (٢) على مقـام إيثـار المكروه على المحبوب رغبة في ثوابه ، وشوقاً إلى جزائه ولاشك في ذلك فإنها مع مساواتها لها في إيثار المكروه ، وكونه أحب من المحبوب وقت تقديره ، وحصوله تزيد على ذلك : بعـدم إختيار المرض ، وطلبه ، عند عدم حصوله ، وإن كان تمنيه رغبة في ثوابه ، وإرضاء النفس به بحيث يصير من المشتهيات من المقامات العالية التي لا تتفق إلا لمثل أبي ذر .

---

(١) قد تكون العبارة في الأصـل : ولو كان كل ما ينسب اليه . . . الخ .

(٢) الظاهر أن الواو هنا زائدة .

أن فيه شائبة الاقتراح على الله واعتراضاً على قضائه وأراد الامام عليه السلام إزالة هذه الوهمة والتنبيه على عوز هذه الحكمة وهو مقام الأعتدال الحقيقي ، والأستقامة التامة التي أشار إلى صعوبتها سيد الكونين بقوله : « شيبتني آية في سورة هود ، وهي قوله تعالى فاستقم كما أمرت » صدق الله العظيم .

الباب العاشر

فيما يتبع الرضا بالقضاء من التوكل
والتفويض . والتسليم

أعلم أن الانسان ما لم يسرح نظره في هـذه الأبواب ، ويأخذ نصيبه منها لا يذوق حلاوة الأيمان ، وان كان لاهل الايمان فيهـا مراتب ،ومقامات على قدر تفاوتهم فيها تختلف مراتب قربهم إلى الله :قال الله عز وجل : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات « ولقد أجاد القائل حيث يقول:

إلهي بكت للخوف منك عصابة وما كل من يبكي لديك له ذنب
ولكنهم للقرب منك تراهم مدامعهم تجري فياحبذا القرب

ومن أجل توقف الأيمان الذي هو أعلى درجة من الأسلام عند المقابلة على حصول هذه المقامات كذب الأعراب في دعواهم للأيمان حيث قال عز من قائل : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الأيمان في قلوبكم » فياخجلتاه ويافضيحتاه ممن يكذب في ذلك اليوم في دعواهم الأيمان وهو يسمى باسم المؤمن ، وتموه عليه نفسه أنه من المؤمنين فما أحقه بقول القائل :

كذبتك نفسك لست من أهل الهوى
للعاشقين علائم ، ودلائل

وليتنا تنبهنا لقول القائل أيضاً :

إذا كنت تهوى القوم فأسلك طريقهم
فما وصلوا إلا بقطع العلائق

هذا ونحن نسمع الله يقول : « وعلى الله توكلوا إن كنتم

مؤمنين » . ونسمعه يقول : فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » فإذا تحقق توقف الأيمان على التوكـــل والتسليم وما في معناهما من التفويض ، فينبغي المبالغة ، والأجتهاد في تقوية ما هو مناط وصف الأيمان وعليه تدور رحاه .

إذ مدار هذا الحث العظيم في الكتاب العزيز ، والسنة للمؤمنين على الأيمان ولوازمه التي ذكرناها حتى أنه عز وجل يقول : (ياأيها الذين آمَنوا آمِنوا) إنما هو تحصيل القدر المعتد به من الأيمان بحيث يكون بمنزلة مستوى الخلقـــة الذي تنصرف اليه الأطلاقات ، ويظهر فيه ترتيب الثمرات ، فأما أقل ما يحصـل به مسمى الأيمان فهو حاصل لهم فلا يكلف بتحصيله ، وأما على الأفراد فهو كمال زائد وهو غير محدود بحد ، فلا يليق أن ينفى إسم الأيمان بدونه ، فصار الحث العظيم على ترتيب المرتبة الوسطى التي هي بمنزلة مستوى الخلقه الذي هو الفرد المتيقن في الأمتثال للأوامر المطلقه ، فما دونه كأنه محـل شك في الأرادة وما هو أعلى لو حصل فلا ريب أنه أكمل وهذه المرتبة الوسطى هي المعروفة باستجماع المرتبة الوسطى من هذه اللوازم فما دونها من المراتب يطلق عليها الأسم نظراً إلى صدق الماهيه وينفى عنهـــا نظراً إلى أنها ليست المرادة ، ومعظم القصد إلى ما فوقها .

فإذا قد تدبرت هذه الجملة فلا مناص عن تشمير الساعد

وبذل الجهد ، والهمة في تحصيل القدر المعتـــد به من الأيمان بحيث يقطع بصدق إسمه عليه ، وهو لا يصح سلبه وهو عليه .

دل الصادق عليه السلام على مارواه الكافي بقوله عليه السلام « إنكم لا تكونوا صالحين حتى تسلموا أبواباً أربعة لا يصلح أولها إلا بآخرها . ضل أصحاب الثلاثه فتا هواتيهاً بعيداً » .

وكذلك نبه أمير المؤمنين عليه السلام على ما في الكافي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام . « الأيمان أربعة أركان ، التوكل على الله ، والتفويض لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، والتسليم لأمر الله عز وجل » .

وكذلك بينه وشرحه مولانا موسى بن جعفر عليه السلام على ما في تحف العقول بقوله عليه السلام : « ينبغي لمن عقل عز الله لا يستبطئه في رزقه ، ولايتهمه في قضائه » . وسئل عن اليقين ، فقال : « يتوكل على الله ، ويسلم لله ، ويرضى بقضاء الله ، ويفوض أمره إلى الله » .

وكذلك نبه رسول الله على ما يلزم الإيمان والمعرفة من الأحوال والصفات وعلى ما فقد من درجة أولياء الله فقـال : (على ما في الكافي عن الصادق عليه السلام عن جده النبي صلى الله عليه وآله : « من عرف الله وعظمه منع فاه من الكلام ، وبطنه من الطعام ، وعنى نفسه بالصيام ، والقيـام ، فقـالوا :

بآباءنا ، وأمهاتنا يارسول الله ، هؤلاء أولياء الله ، فقال : إن أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً ، ونظروا فكان نظرهم عبره ، ونطقوا فكان نطقهم حكمة ، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة ، لولا الاجال التي كتبت عليهم لم تقرأ رواحهم في أجسادهم ، خوفاً من العذاب ، وشوقاً إلى الثواب » .

وكذلك نبه مولانا علي بن الحسين عليه السلام على ما يلزم الأيمان والمعرفه من الصفات التي للمؤمن والمعارف بقوله على ما رواه عنه الطبرسي في الأحتجاج شعراً :

من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقي
ما يصنع المرء بعز الغنى والعز كل العز للمتقي
ماضر ذا الطاعه ماقاله في طاعة الله وما ذالقي

فأصل هذه الخيرات ، والذي عليه مدار الأمر في كل هذه المقدمات : إنما هو دوام مراقبة الله في جميع الحالات بحيث لا يغيب عن نظرك ، كما أنك لا تغيب عن نظره ، وهو قول النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر « أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك » وفي بعض الأحاديث فأن كنت ترى أنه يراك ثم عصيته فقد جعلته أهون الناظرين إليك.

فإذا داومت على مراقبة الله ، وتركت العلائق التي تشغلك عن التوجه إلى الله والألتفات إليه فلا بد حينئذ أن تشاهد ألطافه ، وجميع عناياته بك ، ورأفته ، وصفحه عنك ، وستره

عليك ، وتبديله مساويك بالمحاسن ، وسيئاتك بأضعافها من الحسنات ، فعند ذلك يرسخ حبه في قلبك ، وتنبعث جوارحك لطاعته ، كما تنبعث إلى طاعة كل محسن ممن هو دونه ، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، فكيف بهذا المحسن العظيم الرؤوف الرحيم .

ولذلك تنزجر نفسك عن السعي فيما يخالف رضاه حياء من مقابلة الأحسان بالأساءه ، أو رهبة منه عند إستيلاء عظمته على قلبك ، أو خوفاً من إنقطاع آلائه عنك كما يقول القائل شعراً

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وكذلك عند التفاتك إليه ينمحي عن نظرك كل فاعل سواه ، فلا ترى النافع ، الضار ، إلا الله سبحانه وتعالى ، وكل أحد سواه فانما يتصرف بأذنه . فالقلوب لما أعرضت عن الله سبحانه تعلقت بهذه الأسباب لنسيانها لمسبب الأسباب ، وإلا فعند ذكرها الله وإلتفاتها إليه لا ترى للألتفات والتعلق بغيره معنى بالكلية ، وذلك فطري للعقول ، إذ عند التمكن من الأستعانة بالأقوى ، كيف يجوز التشبث بالاضعف ، بل الذي هولا شيء بالنسبة إلى ذلك ، خصوصاً بعد كون التوجه إليه مانعاً من إعانة الأقوى لك ، فليس هو إلا كما قال الشاعر :

المستغيث بعمرو عند شدته كالمستغيث من الرمضاء بالنار

ولهذا لماعرض جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام

وهو في المنجنيق ، وقد رمي إلى النار . فقال له يا أخي يا إبراهيم هل من حاجة ؟

أجابه إبراهيم عليه السلام (أما إليك فلا) ، فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً ، وأنزل الله بشأنه ، وإبراهيم الذي وفى.

فكذا كل من حصل له الألتفات إلى الله تعالى في ذلك الحال بنسبة مقامه يقطع نظره عن جميع الأسباب ، ويقصر نظره إلى مسبب الأسباب، وعلامة صدق ذلك إستقرار صدق قلبه ، وعدم إضطرابه لفقد الأسباب ، بل يكون وجودها وفقدها على السواء ، حتى سمعت من بعض العارفين أعلى الله مقامه ورفع في الدارين أعلامه ، أنه ربما يحصل له إضطراب عند حصول الأسباب واجتماعها فإذا فقدت يكمل إستقرار قلبه ويرتفع عنه الاضطراب بالمرة ، وبهذا أعلى مقامات التوكل وأصدقها ، وكأن منشأ الاضطراب عند حصول الأسباب هو توجه الأمر الألهي بملاحظة الأسباب فإن ملاحظتها مع عدم الأعتماد عليها مطلوبة ، ومأمور بها ، فلا جرم يتشعب القلب بقدر تصوره لها ، وذكره إياها فأما إذا إرتفعت إنحصر نظر القلب إلى حجة واحدة إستقر وإطمئن بذكر الله كما وصف الله في كتابه العزيز « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وكذلك علامة صدقه أن لا يتأثر قلبه على من يمنعه الشيء

عند الطلب منه ، بل يجب أن يكون حاله كما كتب بعضهم إلى بعض الحكام ، وقد كتب اليه يطلب منه بعض ما إعتمنه الله عليه من رزقه .

ولنعم ما كتب حيث قال : إن أعطيتني ، فالله المعطي ، وقد أجرى الخير على يديك ، وإن منعتني فالله المانع ولا بأس عليك ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك » .

فمن كان نظره إلى مسبب الأسباب وأن الأسباب آلات مسخرة لا يتأثر قلبه من الآلات ، ولا يغضب عليها .

نعم إذا كان من أجرى الخير على يديه لأن يكافىء بالأحسان لم يسقط حقه بكونه مسخراً ، فإن صاحب الأحسان الحقيقي قد أثبت له عليك حق المكافات ، وأوجب شكره عليك بل لا يقبل منك الشكر إلا بشكرك لمن أجرى الخير على يديه .

وهذا أصل عظيم قد تغافل عنه بعض إخواننا الأتقياء حيث أغلب نظره إلى الله فلا يرى للخلق حقاً واجباً في الأحسان الذي يجريه الله على يديهم ، وهذا خطأ واشتباه عظيم ، وجهل بطريقة أهل البيت عليهم السلام ، وبما (١) نفس الأمر والواقع ، فاما طريقة أهل البيت عليهم السلام ففي الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام (إن الله يقول لعبد من عبيده يوم القيامة

(١) لعله : وبما هو نفس الأمر .

أشكرت فلاناً ؟ يقول : بل شكرتك يارب ، فيقول : لم تشكرني إن لم تشكره ، ثم قال : أشكركم لله أشكركم للناس » وهو نص صريح فيما نقلناه .

فاما مخالفة هذه الشبهة الواهية لما في نفس الأمر والواقع فبيانه : إن أصل هذه الشبهة من العامه والمعاندين حيث أصل النعم من الله سبحانه وتعالى ، وقد أجراها على يد محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين ، فاراد العامة والمعاندون أن يقولوا : نحن نشكرك يارب ، ولا نعرف لهذه الوسائط حقاً ، فردهم الله ولم يقبل شكرهم ، إلا بان يشكروا لمن أجرى الخير على أيديهم فجعل من شكره الاعتراف لمن جرى الخير على يديه بالاحسان ، والشكر له على ذلك ، فقد جعلهم الله الباب اليه ، فكل من لم يأت من الباب طرد وبعد .

وكذلك المعارف . والطاعات أراد العامة أن يتوجهوا إلى الله من دون واسطة محمد وآله الطيبين الطاهرين فردها الله عليهم ولم يقبلها منهم ، إلا بالتسليم لأوليائه والأخذ منهم والرد اليهم والتوجه بهم ، وكل ما لم يكن بواسطتهم فهو مردود على صاحبه ، ووبال عليه .

وإنكار حق المحسنين الذين جرى الخير على أيديهم من سائر الناس شعبة من هذه الشبهة الملعونة جرت إلى قلوب بعض أصحابنا الصلحاء من دون تنبه لأصلها وحقيقتها ، وقد كشفنا القناع

عنها ليتحرز من الوقوع فيها والله العاصم .

ويعجبني أن أنقل في هذا الباب حديثاً عجيباً شافياً وافياً عثرت عليه في تحف العقول للفاضل النبيل الحسن بن علي بن شعبة من قدماء أصحابنا ، حتى أن شيخنا المفيد (ره) ينقل عن هذا الكتاب ، وهو كتاب لم يسمح الدهر بمثله ، والحديث : « أنه دخل على الصادق رجل فقال له : ممن الرجل ؟ فقال : من محبيكم ومواليكم . فقال الصادق عليه السلام : « لا يحب الله رجلا حتى يتولاه ولا يتولاه حتى يوجب له الجنه . ثم قال : من أي محبينا أنت ؟ فسكت الرجل . فقال سدير :وكم محبوكم يا إبن رسول الله ؟ ؟ فقال له : على ثلاث طبقات :

طبقة أحبونا في العلانية ، ولم يحبونا في السر ، وطبقة أحبونا في السر والعلانيه ، وهم النمط الأعلى ، شربوا من العذب الفرات ، وعلموا بأوائل الكتاب ، وفصل الخطاب ، وسبب الأسباب ، وهم النمط الاعلى الفقر والفاقه ، وأنواع البلاء أسرع اليهم من ركض الخيل ، مستهم البأساء ، وزلزلوا ، وفتنوا ، فمن بين مجروح ، ومذبوح ، متفرقين في كل بلاد قاصية ، بهم يشفي الله السقيم ، ويغني العديم ، وبهم تنصرون وبهم تمطرون ، وبهم ترزقون ، وهم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً ، وخطراً .

وللطبقة الأولى النمط الأسفل أحبونا في العلانية ، وساروا

بسيرة الملوك ، فألسنتهم معنا ، وسيوفهم علينا .

والطبقة الثالثة النمط الاوسط أحبونا في السر ، ولم يحبونا في العلانية .

ولعمري لئن كانوا أحبونا في السر دون العلانية فهم الصوامون بالنهار ، القوامون بالليل ، وترى أثر الرهبانية في وجوههم ، أهل سلم وانقياد .

قال الرجل : أنا من محبيكم في السر والعلانية . قال الصادق عليه السلام : إن لمحبينا في السر والعلانية علامات يعرفون بها.

قال الرجل : وماتلك للعلامات ؟ قال تلك خلال .

أولهـا أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته ، وأحكموا علم توحيده ، والأيمان بعد ذلك بما هو ، ومـا صفته ، ثم علموا حدود الأيمان ، وحقائقه ، وشروطه ، وتأويله . قال سدير : يا إبن رسول الله ماسمعتك تصف الأيمان بهذه الصفة . قال : نعم يا سدير ليس للسائـل أن يسأل عن الأيمـان ما هو حتى يعلم الأيمان بمن .

قال سدير : يا إبن رسول الله أرأيت أن تفسر ما قلت ؟

قال الصادق عليه السلام : من زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك .

ومن زعم أنه يعرف الله بالأسم دون المعنى فقد أقر بالطعن لأن الأسم محدث .

ومن زعم أنه يعبد الأسم والمعنى فقد جعل لله شريكاً ،
ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالأدراك فقد أحال على غائب .

ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف .

ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر الكبير ، « وما قدروا الله حق قدره » .

قيل فكيف سبيل التوحيد ؟ قال : باب البحث ممكن ، وطلب المخرج موجود : إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه . قيل : وكيف تعرف عين الشاهد قبل صفته قال : تعرفه ، وتعلم علمه ، وتعرف نفسك به ، ولا تعرف نفسك بنفسك ، وتعلم أن مافيه له وبه كما قالوا ليوسف « أأنك أنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخي » فعرفوه به ، ولم يعرفوه بغيره ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب أما ترى الله يقول : « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » يقول ليس لكم أن تنصبوا إماماً من قبل أنفسكم ، وتسموه محقاً بهوى أنفسكم ، وإرادتكم » قال الصادق عليه السلام : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : من أنبت شجرة لم ينبتها الله ، يعني من نصب إماماً لم ينصبه الله ، ومن جحد من نصبه الله ، ومن زعم أن لهذين

سهما في الاسلام ، وقد قال الله : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » وأما صفة الأيمان قال : معنى الايمان الأقرار ، والخضوع لله بذل الأقرار ، والتقرب إليه به ، والأداء له ، بعلم كل مفروض ، من صغير ، أو كبير من حد التوحيد فما دونه ، إلى آخر باب من أبواب الطاعة ، أولا فاولا مقروناً ذلك كله بعضه إلى بعض ، فإذا أدى العبد ما فرض الله عليه فما وصل إليه على صفة ما وصفنا فهو مؤمن ، مستحق بصفة الأيمان مستوجب للثواب ، وذلك أن معنى جملة الأيمان الاقرار ، ومعنى الاقرار التصديق بالطاعة كلها ، صغيرها ، وكبيرها ، مقروناً بعضها الى بعض فلا يخرج المؤمن من صفة الايمان الا بترك ما استحق به أن يكون مؤمناً .

وانما استوجب واستحق اسم الايمان ومعناه باداء كبائر الفرائض ، موصولة - وترك كبائر المعاصي واجتنابها ، وان ترك صغار الطاعة وارتكب صغار المعاصي فليس بخارج من الايمان ، ولا تارك له ، مالم يترك شيئاً من كبار الطاعة ، أو يرتكب شيئاً من كبار المعاصي ، فما لم يفعل ذلك فهو مؤمن ، لقول الله تعالى « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلا كريماً » يعني المغفرة مادون الكبائر فإن هو ارتكب كبيرة من كبائر المعاصي كان ماخوذاً بجميع المعاصي ، صغيرها ، وكبيرها ، معاقباً عليها معذباً بها .

فهذه صفة الايمان وصفة المؤمن المستوجب للثواب » انتهى ماأردنا نقله وله تتمه من أرادها فليطلبها وقد اشتمل من تنويع المحبة لاهل البيت عليهم السلام التي هي عنوان الايمان ،

ومنها يعلم تنوع الايمان على ما لم يشتمل عليه غيره من الاحاديث،وما لم يوجد مجتمعاً في حديث ، وان كانت الأحاديث مع جمعها ، وضم بعضها الى بعض تقصد ما في هذا الحديث الشريف ، وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام يفسر بعضها بعضاً ، ولا يخالف بعضها بعضاً ، وانما يرى الاختلاف فيها لعدم معرفة المقامات التي سيقت لبيانها ، وكل منها يقصد به بيان مقام من المقامات ، ويشاربه الى غيره من المقامات بالاشاره والتلويح ، لينال كل أحد نصيبه .

« قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين » .

الباب الحادي عشر

في أن لأهل الأيمان درجات
يتفاضلون فيما بينهم في حدودها

فيما جاء في تعداد درجات أهل الأيمان وسهامهم وأن المقداد رضوان الله عليه في الثامنه ، وأبا ذر رضوان الله عليه في التاسعة وسلمان رضوان الله عليه في العاشره ، وما وراء عبادان قرية .

ففي الكافي عن عبد العزيز القراطيسي قال : « قال لي أبو عبد الله عليه السلام : ياعبد العزيز إن الأيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولن صاحب الأثنين لصاحب الواحدة لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشرة فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك فإذا رأيت من هو أسفل منك درجة فارفعه اليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره ، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين .

وقد حال القضاء دون التمام ، فأسأل الله الملك العلام أن يخلف علينا من يتم هذا الكلام ولا ييأس من رحمته إلا القوم اللئام .

الفهرست

فاتحة الكتاب ٣

التقديم ٧ - ٢٧

مقدمة المؤلف ٢٨ - ٢٩

الباب الاول في الحاجة الى تهذيب الاخلاق وبيان ثمرته ٣٣ - ٣٨

الباب الثاني في رجحان الخوض في علم الأخلاق وصرف برهة من العمر فيه ٤١ - ٤٣

الباب الثالث في بيان ان الله خلقنا للسعادة الدائمة أعدهـا لنا وأعدنا لها ٤٧ - ٤٩

الباب الرابع في ذكر بعض الطرق الى الله تعالى ٥١ - ٥٨

الباب الخامس في ايضاح تفاهة الانسان من حيث هو وارتفاع شأنه من حيث ارتباطه بالمبدإ الاعلى وتعلقه به ٦٠ - ٦٦

الباب السادس في حقائق مهمة تستوضح من الحقيقة المعروفة : كل شيء يهون بالنظر لما فوقه وكيف يسلك عباد الله الطريق اليه ٦٨ - ٧٨

الباب السابع في أمور لابد منها للسالكين ٨٠ - ٩١

الباب الثامن لا يكمل ايمان المؤمن حتى يستكمل خصالا ٩٣-١٠٨

الباب التاسع في الرضا بالقضاء ١١٠ - ١١٨

دقائق الملاحظات مما نبه عليـه أهل البيت في باب الرضـا بالقضاء ١٢٠ - ١٢٥

الباب العاشر فيما يتبع الرضـا بالقضاء من التوكـل والتفويض والتسليم ١٢٧ -

للباب الحادي عشر في أن لاهل الايمـان درجات يتفاضلون فيما بينهم في حدودها .

تصويبات

وقعت بعض الأخطاء المطبعية على الرغم من العناية المشكورة التي بذلها الاستاذ الفاضل تقي الطحان في تصحيحه نعتمد فيها على نباهة المطالع الكريم ونشير الى أهمها :

السطر	الصفحة	الخطا	الصواب
١٧	١٢	يتوقف عن أحوال	يتوقف عن الحديث عن حوال
١٣	٢٠	الطاهرين	الطاهرون
٥	٢٤	يكملة	يكمله
٧	٢٤	الاخلاقة	الاخلاقية
١	٣٦	الحل	الحس
٤	٤٧	العبادة لتلك السعاد	العباد لتلك السعادة
١٣	٤٧	بحثت	بحيث
١٥	٤٨	عن استغراق	له من استغراق
٤	٥٦	وقد أجرته	ومتاجرته
١٧	٦٣	وتقويمه	تقويمه
١٥	٧٤	فمن	ممن
٢٠	٧٤	فمن	ممن

السطر	الصفحة	الخطا	الصواب
١١	٧٥	فوجدنا	فوجدناه
٨	٧٧	تفر	تغر
١	٧٨	تبدأ	تبده
٧	٨٥	مرادة	مراده
١٥	٨٧	بشير	يشير
٧	٨٩	وقرآت	وقرآن
٨	٨٩	غبا	غبار
٩	٨٩	واجتماع للسكوى	واجتمع للشكوى
١٩	٨٩	والبالغة	والمبالغة
٤	٩٠	نهاية	زمانه
١٣	٩٠	معائذ	معئن
٦	١٠٦	خلقه	خلفه
١٩	١٠٦	النيي	النبي
١٩	١١٢	قوته	فوته
١٥	١١٢	حفرته	حضرته
٢	١١٤	للتكفير	للتكثير
١٥	١١٥	عواعد	عوائد
٢	١١٧	واروات	واردات
٢٠	١٢٠	تعد البكاء	يعد البكاء الا

0818 PB-38200
75-30T
CC

Date Due

Demco 38-297

BOBST LIBRARY
3 1142 02807 9450

PERMA-BOUND

NYU - BOBST
31142 02807 9450
BP183.6 .B3 al-Tariq ila Allah

هذا الكتاب

هو الكتاب الثاني من السلسلة الاسلامية « من هدى أهل البيت » التي أخذت مكتبة الامام الحسين عليه السلام العامة في السماوة على عاتقها إصدارها بما يتلاءم ورسالتها في نشر الثقافة الاسلامية وتقديمها بأفضل ما تستطيعه من السبل متوكلين في ذلك على الله مستعينين به في طلب مرضاته .

وهذا الكتاب من الكتب الجليلة التي حث على الاستفادة منهـا خيرة من العلماء المحققين ، أمثال السيد الحسن الصدر قدس سره إذ يقول : « ما رأيت كلاماً أحسن من كلامه في باب الأخلاق اللهم إلا بيانات جمال السالكين السيـد رضي الدين علي بن طاووس » .

وذكر مؤلفه في التكملة بأنـه « من متأخري المتأخرين من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال » .

وذكره الشيخ آغا بزرك في أعلام الشيعة بأنه « من العلماء الأعلام » كما ذكره السيد محسن الأمين في أعيـان الشيعة بأنه : « عالم فاضـل أخلاقي من متأخري المتأخرين من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال والعرفان » وتحدث عن رسالته هذه :

« وقال بعض من رآها انها من أحسن ما كتب في هـذا الفن » . فهي كما في التقديم : « رسالة في الأخلاق العالية تحتل الصدارة في هذا الفن بما تضمنته من محتوى جليل ، وعرض رائع ، ولغة سهلة ممتنعة » .